****

**تقديم**꞉

 تمثل هاته المطبوعة مجموعة من الدروس ألقيت على طلبة السنة "الثانية ماستر" للموسم الجامعي 2013-2014 م،تخصص أدب عربي قديم،ضمن مقياس "الفنون النثرية القديمة"،الذي يضم المواد الآتية꞉

النثر العربي القديم - فن الخطابة في العصر الجاهلي- فن الخطابة في العصر الإسلامي- فن القصة في الأدب العربي القديم - سجع الكهان - الأمثال -الحكم- فن التوقيعات- السرد(حكايات ألف ليلة وليلة)- فن المقامة(مقامات بديع الزمان الهمذاني والحريري)- فن الترسل(الرسائل الديوانية،الرسائل الاخوانية).

 وهي فنون أدبية أبدع فيها العرب أيما إبداع، وسنقوم بتتبعها تتبعا تاريخيا عبر مراحل كبرى عرفها أدبنا العربي، وهي꞉

العصر الجاهلي- العصر الإسلامي- العصر الأموي- العصر العباسي.معتمدين في ذلك على أمهات المصادر والمراجع العربية التي أرخت لأدبنا العربي وفنونه النثرية،دون أن نغفل العودة إلى شبكة الانترنيت،لنرصد كل جديد يخص هذا المجال المعرفي.

**النثر العربي القديم꞉**

لقد كان النثر العربي القديم مهملا ومهمشا،بسبب هيمنة الشعر على حياة العربي وأدبه،لمدة ليست بالقصيرة،مما أثر على باقي الفنون والأجناس الأخرى،تأثيرا سلبيا،إذ ظل النثر الفني متواريا،بحاجة إلى البحث في جمالياته،ومن أجل إلقاء بعض الأضواء الكاشفة على هذا الفرع الكبير من فروع الأدب،سنعمد إلى معالجة القضايا الآتية꞉

 **1- مفهوم النثر꞉**

 **ٲ- لغة꞉**يقول "ابن منظور"꞉»النثر نثرك الشيء بيدك ترمي به متفرقا مثل نثر الجوز واللوز والسكر.وكذلك نثر الحب إذا بُذر»(1) .

 نستنتج أن المعنى اللغوي يقصد الشيء المبعثر الذي يرمى دون نظام أو قصد،أو أي أساس في التفرقة.

 **ب-اصطلاحا꞉** نجد أن القدامى يطلقون على المصطلح السابق كلمات كثيرة،نذكر أهمها:الكلام،الكتابة،المنثور،وهي كلمات متباينة من حيث مضمونها ودلالتها.فالمنثور الذي هو كلام ليس فيه وزن أو قافية،يخالف المنظوم ويباينه،لأن كل واحد منهما يشكل فنا قائما بذاته،وهو«على ضربين:أما الضرب الأول فهو النثر العادي الذي يقال في لغة التخاطب.وليست لهذا الضرب قيمة أدبية إلا ما يجري فيه أحيانا من أمثال وحكم،وأما الضرب الثاني فهو النثر الذي يرتفع فيه أصحابه إلى لغة فيها مهارة وبلاغة،وهذا الضرب هو الذي يعنى النقاد في اللغات المختلفة ببحثه ودرسه وبيان ما مرّ به من أحداث وأطوار،وما يمتاز به في كل طور من صفات وخصائص،وهو يتفرع إلى جدولين كبيرين،هما الخطابة والكتابة الفنية – ويسميها بعض الباحثين باسم النثر الفني- وهي تشمل القصص المكتوب كما تشمل الرسائل المحبرة،وقد تتسع لتشمل الكتابة التاريخية»(2).

 إذن،فالمنثور يتخذ عدة أوجه وأشكال،ويتحكم في تطوره عدة عوامل،تبعا للأحوال والمقامات،وهناك تباين بين أنواعه،سواء من حيث القيمة أو التداول،وأشهره الخطابة والكتابة الفنية(النثر الفني).

 **2- نشأة النثر الفني عبر العصور:**

 يجد الدارس صعوبة إذا ما حاول معرفة الفترة التي نشأ فيها النثر العربي،ذلك أن معظم الباحثين الذين أخذوا على عاتقهم مهمة دراسة الأدب الجاهلي،قد اضطربوا في تحديد ميلاده،ولم يصلوا إلى رأي واحد يمكن أن يعتمد عليه الباحث،فوسائل التدوين لم تكن متوفرة،كما ـن معظم العرب كانوا أميين في العصر الجاهلي،ومعظم ما روي عن أدبنا جاء عن طريق المشافهة والرواية،إضافة إلى ذلك،فان الحديث عن هذا الجنس ترد -غالبا- في إطار مقارنته بصنوه المتمثل في الشعر،ومناقشة مسألة الأسبقية والأفضلية،وهو ما يتمخض عنه على الأعم اعتباره جنسا أو فرعا أقل مرتبة من الشعر،أو أدنى منه تأثيرا في نفوس السامعين،تقول "د.فاطمة سلامة" في هذا المجال: «...إن التنازع بين الشعر والنثر مر بمرحلتين،هما:المرحلة الأولى،اكتسب طابع صراع وجودي بين الشعر والنثر،حيث دارت أهم المناقشات حوا الأسبقية في الوجود(الأصل،الفرع) أو أهمية المصدر(العقل،القلب)،والمرحلة الثانية تميزت ببروز الوعي النقدي للجمع بين الشعر والنثر،في ظل مفهوم جديد هو ما اصطلح عليه لدى العسكري بالكتابة.لهذا،فان النظر إلى الشعر والنثر باعتبارهما ثنائية يحكمها التضاد أو التنازع مسألة ما تزال تطرح بشكل مغلوط...من هنا كان الموقف السليم في - نظرنا- يتمثل في معالجة قضية تنازع الشعر والنثر في إطارها الطبيعي وهو مسألة الأجناس الأدبية من حيث ظهورها وتطورها وتداخلها وتفاعلها واندثارها»(3)

 **أ- نشأة النثر الفني في العصر الجاهلي:**

اختلفت آراء الدارسين حول نشأة هذا اللون وتعددت،ذلك أن العرب شأنهم شأن غيرهم من الأمم الأخرى،كانت لهم حياتهم السياسية،والاجتماعية،والدينية،والعقلية الخاصة بهم،والتي تدل على طبيعتهم الذاتية واستقلاليتهم،وهو ما يؤكده "د.زكي مبارك"،فيقول في هذا الشأن: «إن الجاهليين لابد وأن يكونوا قد بلغوا في ذلك المضمار شأوا لا يقل عما وصل إليه الفرس واليونان في ذلك الوقت،بل اتهم في إنتاجهم الأدبي في النثر لم يكونوا متأثرين تأثرا كبيرا بدولة أخرى مجاورة أو غير مجاورة،وإنما كانت لهم في كثير من الأحيان أصالتهم وذاتيتهم واستقلالهم الأدبي الذي تقتضيه بيئتهم المستقلة،وحياتهم التي كانت أقرب إلى الانعزال.وإذا كانت الظروف المختلفة لم تساعد على بقاء هذا التراث من النثر الجاهلي،فليس معنى ذلك أن نهدره ونحكم بعدم وجوده وإنما يجب ن نتلمسه في مصادر أخرى.ونحن إن فعلنا هذا فسوف نجد بين أيدينا حجة لا تنكر، ودليلا لا يجحد على أن ثمة نثرا جاهليا، ألا وهو القرآن الكريم...تأكد لنا أن العرب الجاهليين قد عرفوا النثر الفني، وأن القرآن الكريم يمكن أن يعطينا صورة - ولو تقريبية -عنشكل هذا النثر، ومنهجه، وحالته»(4) .

 غير أن بعض الدارسين يرون أن هذا النثر المنسوب للجاهليين منحول ومدسوس عليهم في معظمه،وممن يؤيد هذا الرأي "د.طه حسين"،الذي لا يتصور أن هذا النثر الفني المحكم الرصين،كان موجودا في العصر الجاهلي،إذ إن هذا اللون إنما يلائم - حسبه- نوعا من الحياة لم تكن قد تهيأت للعرب إذ ذاك.فهاته الحياة البسيطة التي كان يحياها العرب قبل الإسلام لم تكن تسمح بقيام هاته الكتابة الفنية التي تستدعي الرؤية،والتفكير،ووجود جماعة إنسانية منظمة...وهذا النثر ليس إلا شيئا منحولا عليهم،فهاته الخطب،والوصايا،والأسجاع،والكلام الذي ينسب إلى"قس بن ساعدة"،و"أكثم بن صيفي" وغيرهما يكفي أن ننظر إليه لنرده جميعا إلى العصور الإسلامية،التي انتحل فيها الشعر أيضا وأضيف للجاهليين(5).

 أما "د.شوقي ضيف" فهو يقف موقفا وسطا بين الرأيين،فيقول: «نحن لا نغلو هذا الغلو الذي جعل بعض المعاصرين يذهب إلى أن العرب عرفوا الكتابة الفنية أو النثر الفني منذ العصر الجاهلي،فما تحت أيدينا من وثائق ونصوص حسية لا يؤيد ذلك إلا إذا اعتمدنا على الفرض والظن،والحق أن ما تحت أيدينا من النصوص الوثيقة يجعلنا نقف مرحلة وسطى بين الرأيين،فلا نتأخر بنشأة الكتابة الفنية عند العرب إلى العصر الجاهلي،بل نضعها في مكانها الصحيح الذي تؤيده المستندات والوثائق،وهو العصر الإسلامي»(6).

 **ب-النثر في العصر الإسلامي:**

 لقد أحدث القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف نقلة نوعية في اللغة والأدب العربيين عامة،والنثر العربي بصفة خاصة،فقد«دخل النثر العربي في طور جديد بظهور الإسلام،بعد أن تعرضت الحياة الأدبية لانقلاب شامل وتطور بعيد المدى.ولم يكن ثمة بد من أن يتأثر الأدب بالحياة الجديدة وأن يكون صدى لأحداثها واتجاهاتها.وكانت مظاهر التطور في النثر أوضح منها في الشعر، لأن الشعر فن تقليدي يترسم فيه الشاعر خطى سابقيه، ويلتزم أصولا محددة »(7).

كما أن أغراضه قد تنوعت أيضا، فـ«تلون النثر بجميع ألوان الحياة الجديدة فكان خطابة، وكتابة، ورسائل وعهودا، وقصصا، ومناظرات، وتوقيعات، وكان على كل حال أدبا مطبوعا»(8) .

  **ج-النثر في العصر الأموي:**

 إن الكتابة نمت في العصر الأموي نموا واسعا، فقد عرف العرب فكرة الكتاب، وأنها صحف يجمع بعضها إلى بعض في موضوع من الموضوعات(9)  .

 وكانت الكتابة ضرورة إدارية ملة لا غنى عنها في إدارة شؤون الدولة والمجتمع، في المكاتبات والدواوين المختلفة.كما كانت ضرورة اجتماعية لا غنى عنها في المعاملات.وكذلك كانت ضرورة علمية لا غنى عنها في الحركة العلمية التي ازدهرت في العصر الأموي وتعاظمت في آواخره.ونتيجة لذلك كله توسع انتشار الخط واستعمال الكتابة،إبان ذلك العصر،توسعا عظيما،نظرا لإقبال الناس على طلبه(10) .

 وكان الاضطرار إلى استخدام الكتابة،بارزا منذ عهد الخلفاء الراشدين،وخاصة عند "عمر بن الخطاب"-رضي الله عنه- لكثرة الفتوحات،وما ترتب عنها،فاتخذ ديوانا للجيش،واتبع الخلفاء من بعده سنته،إلى أن زاد "معاوية بن أبي سفيان" ديوان الخراج وديوان الرسائل،هذا الفن الأخير الذي أخذ ينمو ويتطور ويرتقي،لعدة أسباب،لعل من أهمها حاجة الدولة إليه،لتدبير شؤون البلاد والعباد،وقد تجلت بواكير الكتابة في هذا النوع بفضل جماعة من الكتاب ترأسوا هذا الديوان،كان على رأسهم "عبد الحميد بن يحي الكاتب"،الذي أثر بفضل موهبته تأثيرا كبيرا في تطور الكتابة،يقول عنه "د.شوقي ضيف":«هو أبلغ كتاب الدواوين في العصر الأموي وأشهرهم،وقد ضربت ببلاغته الأمثال»(11)،وقال "ابن النديم" مشيدا ببلاغته: «...عنه أخذ المتوسلون ولطريقته لزموا،وهو الذي سهل سبيل البلاغة في الترسل»(12).

 وعلى العموم،لعب الرجل دورا كبيرا وملحوظا في تطوير فن الترسل وخاصة الرسائل الديوانية منه،فبفضل موهبته الفذة،أصبح كاتب الخليفة.

 **د-النثر في العصر العباسي:**

 أصبح النثر العربي في العصر العباسي متعدد الفروع،فهناك النثر العلمي والنثر الفلسفي والنثر التاريخي،والنثر الأدبي الخالص،وكان في بعض صوره امتدادا للقديم،وكان في بعضها الآخر مبتكرا لا عهد للعرب به(13)،كما تعددت أغراضه:

المدح،الهجاء،الرثاء،الاعتذار،التهنئة،التعزية،الاستعطاف،الوصف،النسيب،...الخ، كما أصبح متعدد الفروع، فـ«هناك النثر العلمي والنثر الفلسفي والنثر التاريخي، والنثر الأدبي الخالص»(14).

 وعلى العموم، فقد نهض النثر العربي في تلك الفترة وازدهر ازدهارا كبيرا.ولعل من أهم أسباب نهضته نذكر ما يلي:

- استقرار الأمور في الدولة واتساع العمران، وما يتبع ذلك من رخاء.

- النضج العقلي وظهور آثار التقدم الفكري في الدولة.

- ظهور أجيال جديدة من المثقفين من أبناء الأمم المستعربة الذين جمعوا إلى الثقافة العربية الأصيلة فنونا جديدة من ثقافات آبائهم الفرس،الهنود،واليونان.

- تشجيع الخلفاء والأمراء للكتاب وإغداق الأموال عليهم.

- وصول الكتاب إلى المناصب الكبيرة جعل الكتابة مطمح كل راغب في الجاه والسلطان.

- التنافس بين الكتاب في سبيل الإجادة الفنية.

- كثرة المذاهب الكلامية وحاجة كل مذهب غالى التأييد وشرح مبادئه(15).

 ومن مظاهر نهضته نذكر:

- تنوع فنونه وأغراضه،فقد تناول كل مجالات الحياة واستخدمته الدولة في الشؤون السياسية والاجتماعية والثقافية.

- وصول الكتاب إلى المناصب الوزارية.

- أصبح وعاء لثقافات جديدة،كانت نتيجة لامتزاج الفكر العربي بأفكار الأمم الأخرى.

- رقي الأفكار وعمق المعاني.

- التفنن في أساليبه وظهور مدارس متنوعة(16).

 وعلى هذا نقول، إن النثر العربي القديم يشيد كيانه الخاص به، الذي يميزه عن بقية الأمم الأخرى، حتى ولو كانت نشأته غامضة أو مختلفا فيها، كما أنه بني صرحه الذي يميزه عن بقية الفنون والأجناس الأدبية الأخرى،وحتى عن صنوه المتمثل في الشعر،إذ شهد تطورا ملحوظا،واستجاب لمتطلبات العصر الذي مر به،فقد تغيرت معانيه وألفاظه وأغراضه بظهور الإسلام،فاكتسب معان وقيم روحية جديدة،ودقت معانيه وأساليبه،ولما ازدهرت الكتابة والخط بصفة عامة في العصر الأموي،أصبح النثر ذا شأن عظيم،وكان"سعيد بن العاص" يردد دائما هاته المقولة: «من لم يكتب فيمينه يسرى »(17)،مما يدل على أهمية الكتابة القصوى ...واستمر الحال غاية العصر العباسي،حيث انتقل نقلة نوعية،إذ نمى وازدهر،وتحرر من قيود تفاعلاته مع الأمم الأخرى،واستقل بنفسه نثرا عربيا خالصا•

**الهوامش:**

(1)- ابن منظور(أبو الفضل جمال الدين):لسان العرب، مادة(نثر)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط 2، 1992.

(2)- شوقي ضيف:الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، القاهرة، ط 2، (د.ت)،ص15.

(3)- فاطمة سلامة: «إشكالات النثر العربي القديم وخصائصه »، في www.dr-aysha.com

(4)- زكي مبارك:النثر الفني في القرن الرابع هجري،ج 1،المكتبة العصرية،بيروت،لبنان،(د.ط)،(د.ت)،ص.ص 50- 51.

(5)- ينظر:طه حسين:في الأدب الجاهلي،مطبعة فاروق،القاهرة،(د.ط)،1933،ص369.

(6)- شوقي ضيف:الفن ومذاهبه في النثر العربي،ص104.

(7)- عمر الدقاق:مواكب الأدب العربي عبر العصور،طلاس،دمشق،ط1، 1988،ص77.

(8)- حنا الفاخوري:الجامع في تاريخ الأدب العربي(الأدب القديم)،منشورات ذوي القربى،ط3، 1427ه،ص322.

(9)- شوقي ضيف:الفن ومذاهبه في النثر العربي،ص100.

(10)- رضوان باغباني: «تطور النثر العربي »،فيwww.diwanalarab.com

(11)- شوقي ضيف:الفن ومذاهبه في النثر العربي،ص114.

(12)- ابن النديم(محمد بن إسحاق):الفهرست،دار المعرفة،بيروت،(د.ط)،(د.ت)،ص170.

(13)- شوقي ضيف:الفن ومذاهبه في النثر العربي،ص125.

(14)- محمد عبد المنعم خفاجي:الأدب العربي وتاريخه في العصرين الأموي والعباسي،دار الجيل،بيروت،(د.ط)،1990، ص312.

(15)- سيد سعيد غزلان وآخرون:الأدب والنصوص،ج2،(د.ط)،(د.ت)،ص.ص178-179.

(16)- المرجع نفسه،ص178.

(17)- القلقشندي(أبو العباس أحمد بن علي):صبح الأعشى في صناعة الإنشاء،ج1،وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة،(د.ط)،(د.ت)،ص37.

 **فن الخطابة في العصر الجاهلي:**

الخطابة هي إحدى الفنون الأدبية التي عرفت منذ القدم،وهي تقوم على مجموعة قوانين وقواعد،يجب التقيد بها للتأثير في السامع وإقناعه،وقد مارستها كل الأمم.فألف فيها اليونان،وبرز منهم خطباء كثر،وحذا حذوهم الرومان مقلدين محاكين لهم،ولم تكن قبيلة أوعشيرة في العرب إلا ولها خطيب،ولمكانتها العظيمة كانت العرب قديما تحتفل بنبوغ فارس أو شاعر أوخطيب مفوه،بل إن مكانة الخطيب تعلو أحيانا مكانة الشاعر.

 1- **تعريف الخطابة:**

 عرفت الخطابة بتعاريف كثيرة،إلا أنها ليست تعاريف جامعة مانعة،إذ لم تمنع من دخول فنون أخرى معها ك :الوصايا،الإعلانات،الدروس،المحاضرات،وما شابه ذلك.

 **أ- لغة:**يقول "ابن منظور":«الخِطَابُ والمُخَاطَبَةُ:مراجعة الكلام، وقد خَاطَبَهُ بالكلام مُخَاطَبَةً وخِطَابًا، وهما يخاطبان.والخُطْبَةُ مصدر الخَطِيْبِ، وخَطَبَ الخَاطِبُ على المنبر، وخَطَبَ يَخْطُبُ خَطَابَةً، واسم الكلام:الخُطْبَةُ.قال الليث:إن الخُطْبَةَ مصدر الخَطِيْبِ،لا يجوز إلا على وجه واحد،وهو أن الخُطْبَةَ اسم الكلام الذي يتكلم به الخَطِيْبُ»(1) ،و«الخَطْبُ سبب الأمر...والخِطَابُ مراجعة الكلام، والخطب مصدر الخَطِيْبِ وجمع الخطيب خُطَبَاءٌ»(2).

 وقد لا يفرق البعض بين الخطابة والبلاغة، فـ"الجاحظ" على سبيل المثال،يعرف البلاغة بقوله: «أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة،وذلك بأن يكون الخطيب رابط الجأش ساكن الجوارح...»(3)،ثم يعدد بعد ذلك شروط الخطيب ومقتضيات الخطابة.

 **ب-اصطلاحا:**عند "عبد القاهر الجرجاني":«الخطابة...قياس مركب من مقدمات مقبولة أومظنونة،من شخص معتقد فيه،والغرض منها ترغيب الناس فيما ينفعهم من أمور معاشهم ومعادهم كما يفعله الخطباء والوعاظ»(4).

فجوهر الخطابة عند "الجرجاني" ما يقوم به الوعاظ،من استخدام للمنطق القائم على المقدمات والنتائج،وذلك لاستمالة الناس وإقناعهم،لما فيه خيرهم وصلاحهم.

 ويعرفها "الشيخ علي محفوظ" على أنها: «مجموع قوانين يقتدر بها على الإقناع الممكن في أي موضوع يراد، والإقناع حمل السامع على التسليم بصحة المقول وصواب الفعل أو الترك »(5).

 وعند "أحمد محمود الحوفي":«فن مشافهة الجمهور وإقناعه واستمالته»(6).يشمل هذا التعريف على ضوابط الخطابة ،فلا بد من:

- توفر جمهور يستمع، وإلا كان الكلام حديثا أو وصية.

- الإقناع،ودلك بأن يوضح الخطيب رأيه،ويؤيده بالحجج والبراهين الدامغة.

- أما الاستمالة،فالمراد بها أن يهيج الخطيب نفوس سامعيه أو يهدئها،يقبض على زمام عواطفهم،سارا أو محزنا،مضحكا أو مبكيا،داعيا إلى الثورة أو إلى السكينة(7).

 وعرﱢفت بأنها«علم يقتدر بقواعده على مشافهة الجماهير بفنون القول المختلفة لإقناعهم واستمالتهم»(8) .

 من الواضح أن الخطابة لدى الكثيرين فن وعلم ،و"الجرجاني "نفسه يقول: «...علم الخطابة ونقد الشعر »(9)،وذلك حتى لا يدخل أيضا الشعر في حقيقتها،لتبقى كلاما فنيا منثورا ولونا خاصا من ألوانه تختص بالجماهير،إنها ببساطة:فن،علم،معرفة،ملكة،مشافهة،مواجهة،تأثير،إقناع،...إلخ.

 **2- الخطيب الجاهلي وصفاته:**

 الخطيب لغة هو«الحسن الخطبة، ومن يقوم بالخطابة في المسجد وغيره، والمتحدث عن القوم»(10)، أما اصطلاحا فهو«القائم بعملية الخطابة»(11).

 ونظرا للمكانة العظيمة التي يحتلها الخطيب، فلابد من توفر صفات معينة فيه نجملها باختصار:

الاستعداد الفطري،الفصاحة،سعة الثقافة،معرفة نفسية السامعين،سرعة البديهة،الشكل(المظهر الخارجي)،جودة الإلقاء(12)،تغير في نبرة الصوت،حركة الجسم،توزيع النظر إلى المستمعين(13).

إضافة إلى طقوس معينة،كالإمساك بالعصا أو الرمح للتلويح،والوقوف على مكان مرتفع من الأرض،أو يقف على دابة،وهي تقاليد سنها الخطيب الجاهلي واتبعها من جاء من بعده.

 **3- تطور الخطابة في العصر الجاهلي:**

 مما لا شك فيه أن عرب ما قبل الإسلام كانت لهم خطب قوية،وأنهم اعتمدوا عليها في مواقفهم الهامة والمصيرية،واستعملوها في مجتمعاتهم ودعواهم للحرب والغزو أو السلم والسلام،وقد ذهب الكثير من تلك الخطب مع الزمن وحفظ لنا التاريخ قليلا منها كما حفظ أسماء خطباء كانوا مشهورين ولم يبق من خطبهم شيء،وذلك لتفشي الأمية وبعد الزمن(14).

 وسنقوم باستعراض تلك العوامل التي لعبت دورا هاما في تطور الخطابة في العصر الجاهلي وازدهارها، ومنها:

**الحرب:**لعب الخطباء في ذلك الوقت دورا هاما في تحريض الناس على الحرب والتدمير وسفك الدماء،أو الصلح والسلم وإصلاح ذات البين،وأن تضع الحرب أوزارها،يقول "ربيعة بن مقروم":

خطباؤنا بين العشيرة يفصل ☼ ومتى تقم عند اجتماع عشيرة(15).

**الأسواق:**اشتهر العرب بعدة أسواق،كانوا يعقدون فيها مجالس يبحثون فيها مواضيع كثيرة،كمناشدة الأشعار وإلقاء الخطب،وكانوا يكافئون كل مجيد،ومن أشهر تلك الأسواق "سوق عكاظ"،الذي كان مناسبة كبرى لإبراز الإبداعات الخطابية.

**المجالس والأندية:**كان للعرب قديما مجالس يبحثون فيها شؤونهم العامة والخاصة،نذكر منها "نادي قريش" و"دار الندوة"،إذ كانوا يجتمعون فيها من كل البلدان والقرى،وكانوا بالمثل ينشدون أو يلقون خطبهم.

**التعصب والمفاخرة:**من طبيعة العرب المنافرات والمفاخرات بالأحساب والأنساب والمآثر.

ومن المنافرات التي لقيت الشيوع في هذا المجال منافرة "علقمة بن علاقة" إلى "هرم بن قطبة الفراري"،ومنافرة "القعقاع بن معبد التميمي" (16).

**الزواج:**من طبيعة العرب في العصر الجاهلي في الزواج أن يتقدم عن الخاطب سيد من قبيلته أو عشيرته،فيخطب باسمه الفتاة التي يريد الاقتران بها (17).

**الوصية:**من ذلك وصية "أوس بن حارثة " لابنه "مالك" والتي يقول فيها: «يا مالك،المنية ولا الدنيئة،والعتاب قبل العقاب،والتجلد لا التبلد،واعلم أن القبر خير من الفقر،وخير الغنى القناعة،وشر الفقر الضراعة... »(18).

ومن أشهر القبائل العربية التي ساهمت بحظ وافر في هذا التطور،نذكر: قبيلة عدوان(عامر بن الظراب)،أسد(ربيعة بن حذار)،شيبان(هاني بن قبيصة)،كلب(زهير بن جناب)،طيء(ابن عمار)،إياد(أكثم ابن صيفي)...الخ.

 **4-أنواع الخطب الجاهلية وموضوعاتها:**

 دارت الخطابة في الجاهلية نطاق البيئة التي نشأت وترعرعت فيها،فكانت خطابة بطولة وفروسية يفوه بها الخطباء للدعوة إلى القتال والحض على النزال،وكانت خطابة دفاع أو صلح وسلام،وكانت خطابة مفاخرة أو منافرة أمام حكم يحكم،أو في حضرة ملك تميل بميله كفة الميزان(19).

وكانت خطابة زهد تدعو الناس إلى الصدود عن بهارج الدنيا والتعلق بحبال الآخرة،وكانت خطابة كهان يسجعون سجع الحمام في سبيل هدف غيبي يطلقون وراءه الأقاويل،وينصبون على جوانبه الأحابيل،كانت خطابة زواج ҆يعق ويبارك.أو خطابة موت يلم فيفجع،ويرمي القلوب في هوة سحيقة من الحزن،ويحمل على التأمل في حقيقة الوجود،وكانت أخيرا خطابة وصايا يتوجه بها الطاعنون في السن إلى أبنائهم(20).

 ومن هنا يحصي دارسوا الخطب عدة أنواع منها، نذكر أهمها:

**خطب المنافرة:**وهي المباهاة والمفاخرة في الجمع المحتشد بفضائل الأصل ومكارم النسب ومحامد الأخلاق،وعلو المنزلة،وجليل الأفعال،كمنافرة "علقمة بن علاثة" و"عامر بن طفيل".

قال علقمة:أنا خير منك أثرا وأحد منك بصرا،وأعز منك نفرا،وأشرف منك ذكرا.فرد عليه عامر:إني لأسمى منك سمة،وأطول منك قمة وأحسن منك لمة،وأجعد منك جمة وأسرع منك رحمة،وأبعد منك همة(21).

**خطب الحرب:**تغلب الحماسة في حال الحرب،فتطيش الأحلام،فماثم غير الغضب،والخطباء أحدهم يصب الزيت والآخر يقدح الزناد حتى يذكو اللهب،كفعل "هاني بن قبيصة الشيباني" يوم ذي قار،قال:يا معشر بكر:هالك معذور خير من ناج فرور،إن الحذر لا ينجي من القدر...يا آل بكر قاتلوا فما للمنايا بد(22).

**خطب الوعظ:**كان حكماء العرب يمعنون النظر في حياتهم والكون،فيجدون فيها مواعظ يعز عليهم جهل قومهم بها،فينبروا بالخطابة واعظين لأقوامهم.ومن ذلك خطبة "المأمون الحارثي":«أرعوني أسماعكم...لو ҆كشفت الأغطية.وتجلت الغشاوة عن العيون لطرح الشك من اليقين وأفاق من نشوة الجهالة من استولت عليه الضلالة»(23).

**خطب النكاح:**يقول "الجاحظ" عن خطب العرب في الزواج: «كانت خطبة قريش في الجاهلية - يعني خطبة النساء-:باسمك اللهم ذكرت فلانة،فلان بها مشغوف،باسمك اللهم لك ما سألت،ولنا ما أعطيت»(24).

ومن الأمثلة المشهورة عن ذلك خطبة "أبي طالب(رضي الله عنه)" للسيدة "خديجة بنت خويلد (رضي الله عنها)" للرسول(صلى الله عليه وسلم)،حيث قال: «الحمد لله الذي جعلنا من زرع إبراهيم وذرية إسماعيل...ثم إن محمد بن عبد الله،ابن أخي،من لا يوزن به فتى من قريش...برا وفضلا وكرما،وعقلا...وإن كان قل المال فإنما المال ظل زائل...وله في خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك،وما أحببتم من الصداق فعلي »(25).

**خطب التهاني:**وفيها تلميح بعدم الغرور بعطاء الله،والبعد عن الطغيان،فحين استرد "سيف بن ذي يزن" ملكه من الأحباش هنئه "عبد المطلب" بقوله: « إن الله تعالى:أيها الملك،أحلك محلا رفيعا...وأنبتك منبتا طابت أرومته،أشخصنا الذي أبهجك،بكشف الكرب الذي فدحنا،فنحن وفد تهنئة لا وفد المرزئة»(26).

**خطب التأبين:**التأبين هو الثناء على الميت عند القيام على قبره،كتأبين "عائشة (رضي الله عنها)" لأبيها،وقد وقفت على قبره وقالت: «نضر وجهك وشكر لك صالح سعيك،فلقد كنت للدنيا مذلا بأدبارك عنها وللآخرة معزا بإقبالك عليها.وإن كان لأجل الأرزاء بعد رسول الله(ص)رزؤك وأكبر المصائب فقدك،وإن كتاب الله ليعد بجميل العزاء وحسن العوض منك،فانتجز من الله موعده فيك بالصبر عنك»(27).

 **5-خصائص الخطابة الجاهلية(مميزاتها):**

إن الخطابة كفن تمتاز بمجموعة من الخصائص والمزايا والأساليب،التي تميزها عن غيرها من الفنون كل تمييز.ومن أظهرها:

- غياب المنهج، فلا مقدمة ولا خاتمة.

- القصر مقارنة مع خطب عصر الإسلام(عناية بالإيقاع).

- الاستشهاد بالشعر،وضرب الأمثال.

- الصنعة(استخدام السجع، الازدواج).

- بساطة الأفكار(28).

 وخلاصة القول،إن الخطابة عند العربي مظهر من مظاهر الفروسية والرجولة،وسبيل من سبل الإقناع،وقد مارسها وأبدع فيها منذ القدم•

**الهوامش:**

(1)-ابن منظور(أبو الفضل جمال الدين):لسان العرب،كتاب الباء،فصل الخاء،دار صادر،بيروت،ص361.

(2)-الخليل بن أحمد الفراهيدي:كتاب العين،تح:مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي،(د.ط)،(د.ت)،ص222.

(3)-الجاحظ(أبو عثمان عمرو بن بحر):البيان والتبيين،ج1،مكتبة الخانجي،القاهرة،ط7،1998،ص92.

(4)-الجرجاني :التعريفات،ج1،عن قرص(CD)،المكتبة الشاملة،الإصدار الثاني،في www.alwaraq.com

(5)-علي محفوظ:فن الخطابة وإعداد الخطيب،دار الاعتصام،ك.الكتروني،ص13.

(6)-أحمد الحوفي:فن الخطبة،نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع،القاهرة،2003،ص5.

(7)-المرجع نفسه.

(8)- يوسف محمد يوسف:الخطابة،مطبعة الفجر الجديد،ط1،1992،ص21.

(9)-الجرجاني:أسرار البلاغة،تع:محمود محمد شاكر،مطبعة المدني،جدة،ط1،1991،ص398.

(10)-إبراهيم مصطفى وآخرون:المعجم الوسيط،مادة(خطب)،المكتبة الإسلامية،استانبول،ص243.

(11)- «الخطابة»،في ويكيبيديا الموسوعة الحرة(إلكترونية).

(12)-ينظر: أحمد الحوفي:فن الخطبة،ص5.

(13)- «الخطابة»،في ويكيبيديا الموسوعة الحرة.

(14)-عبد الكريم البوغبيش: «تطور الخطابة الإسلامية»،5

تشرين الأول2001،فيwww.facebook.com/permalink.php

(15)-شوقي ضيف:تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي،دار المعارف،ط24،(د.ت)،ص410.

(16)-ينظر:الجاحظ:البيان والتبيين،تح:درويش جويدي،المكتبة العصرية،بيروت،2006،ص272.

(17)- شوقي ضيف:تاريخ الأدب العربي،ص417.

(18)-إيليا الحاوي:فن الخطابة وتطوره عند العرب،دار الثقافة،بيروت،ص.ص50-51.

(19)- حنا الفاخوري:الموجز في الأدب العربي وتاريخه القديم،دار الجيل للنشر والطباعة والتوزيع،بيروت،ص117.

(20)-المرجع نفسه.

(21)-غازي طليمات وعرفان الأشقر:الأدب الجاهلي،دار الإرشاد،حمص،ط1،1992،ص543.

(22)-المرجع نفسه،ص45.

(23)-المرجع نفسه،ص44.

(24)- الجاحظ:البيان والتبيين،ص407.

(25)- غازي طليمات وعرفان الأشقر:الأدب الجاهلي،ص45.

(26)-المرجع نفسه،ص547.

(27)- ينظر:معروف الرصافي:نفح الطيب في الخطابة والخطيب،مطبعة الأوقاف الإسلامية،ط1،1917،ص44.

(28)- ينظر: غازي طليمات وعرفان الأشقر:الأدب الجاهلي،ص548.

**الخطابة الإسلامية وتطورها:**

 الخطابة ضرورية لكل مجتمع في سلمه وحربه،فهي أداة الدعوة إلى الرأي والتوجيه إلى الخير،ووسيلة الدعاة من الأنبياء والمرشدين،والزعماء والمصلحين،فهي ضرورة من ضرورات الحياة الاجتماعية والدينية والسياسية (1).

 **1)- الخطابة في العصر الإسلامي:**

 **أ- مكانتها:**

ازدهرت الخطابة في هذا العصر ولا سيما الخطابة الدينية،وذلك بزوال خطابة المنافرات والمفاخرات،والانصراف عن السجع،فانطبعت الخطبة باللين والهدوء،وعدم الاستشهاد بالشعر.

وأهم ما تميزت به الخطابة في صدر الإسلام تأثرها بأسلوب القرآن الكريم إلى حد بعيد،فهي تستمد منه ما يساعد في الإقناع والإرشاد والاحتجاج،فكان الخطباء يزينون كلامهم بأحاديث النبي – صلى الله عليه وسلم- ،كذلك اتخذت الخطبة في هذا العصر تقليدا خاصا في البدء بالبسملة والحمدلة والختام بالدعاء والاستغفار،وكان هم الخطباء أداء الفكرة من غير صناعة أو تنميق.

وقد اعتمد الإسلام على الخطابة لحاجته إليها أداة في التبليغ وتفنيد حجج الخصوم،وإعلان قيم الإسلام وآدابه وأحكامه،فأصبحت وسيلة الدعاة المفضلة،بل صارت شعيرة من شعائر بعض العبادات.فهي جزء من صلاة الجمعة الأسبوعية وصلاة العيدين وصلاة الاستسقاء.وهي القناة لإبلاغ المسلمين عندما يحز بهم أمر أو يلم بهم خطب،أو تظهر الحاجة لاستنهاض الناس واستنفارهم(2).

 **ب-عوامل ازدهارها في العصر الإسلامي:**

 احتلت الخطابة المكانة التي كانت للشعر من قبل،لأن العقيدة الجديدة تستلزم الخطابة وتستدعيها،فضلاعن كثرة التنازع السياسي والديني،فكان عصر صدر الإسلام من أعظم العصور الأدبية أثرا في الخطابة،إذ استكملت عناصرها الفنية والأدبية...وكان ازدهارها نتيجة لمؤثرات كثيرة منها:

- الدعوة الإسلامية العظمى والخصومة بين أنصارها ومعارضيها استدعت رقي الخطابة.

- رفع الإسلام من شأن العقل،وخفضه لغلواء العاطفة.

- الرقي السياسي والاجتماعي،إذ أصبحت العرب أمة واحدة لها رئيس أعلى،ونظمت شؤونها الاجتماعية تنظيما استدعى الخطابة،سواء كان من الخليفة أو قواده أو عماله،أم من أفراد الأمة وخطبائها،أم في مجالس القضاء والشورى والفصل في الأمور.

- سلامة الملكات وقوة الطباع وعذوبة الألسنة،والقدرة على الارتجال،وذيوع آثار بلاغة القرآن والحديث في النفوس والعقول والأذواق.

- كثرة الخلافات حول الخلافة بعد موت الرسول وبعد مقتل "عمر" وما يستلزم ذلك من كثرة فن الخطابة والحجاج بين الآراء والأفكار والأحزاب السياسية(3).

 **جـ- التغيرات التي طرأت على الخطابة مع قدوم الإسلام:**

لقد كان ظهور الإسلام إيذانا بتطور فن الخطابة شكلا ومضمونا،إذ قضي على كل لون قديم لا يتفق وتعاليم الدين الإسلامي الحنيف،أومع روحه السمحة،فكان من الطبيعي أن يحد من غلواء خطب المنافرات والتفاخر بالأحساب والأنساب والأجداد...ولذا يتوجب علينا أن نتوقف عند هذه العوامل التي أدت إلى هذه التغيرات الجذرية:

 - الانتقال من العصبية القبلية إلى العقيدة.

- الدعوة إلى الدين الجديد،؛فقد كانت الخطابة هي السلاح النافذ للرد على المشركين.

- القضاء على الوثنية بما تحمله من سحر وكهانة وشعوذة وخرافة،وبذلك ارتقى العقل البشري متخلصا من الحماقات والترهات.

- إبطال العادات والسنن القبيحة،وبناء مجتمع نظيف(4).

 كما أنها اكتسبت بالتدريج هذه الخصائص المميزة التي نجملها فيما يلي:

- تعدد الموضوعات .

- الطول مقارنة بالجاهلية.

- عدم تكلف السجع.

- التخلي عن الأمثال والحكم.

- الاقتباس من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

- اتفاق العبارات مع المضمون.

- الاستهلال بالحمدلة والبسملة.

- شدة العاطفة وجزالة الألفاظ(5).

 **د-أشهر الخطباء في العصر الإسلامي:**

 لا شك أن النبي –صلى الله عليه وسلم- يعد سيد الخطباء،فقد بعث في شبه الجزيرة العربية بمعجزة لم يأت بها نبي أو يبعث بها رسول،ألا وهي كتاب فاق به بلاغة الإنس والجن.وصدق الله (عز وجل) حين قال: «قُلْ لَئِنْ اجْتَمعَتْ اَلْإِنْسُ وَاَلْجِنﱡ عَلَى أَنْ يَأْتُوْا بِمِثْلِ هَذَا اَلْقُرْآنِ لَا يَأْتُوْنَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيْرًا»(6).وخطبه محفوظة ومدونة في الكتب.

 وبالمثل كان الخلفاء من بعده خطباء مفوهين:أبو بكر الصديق،عمر بن الخطاب،عثمان بن عفان،علي بن أبي طالب -رضوان الله عليهم جميعا-،وبعض الصحابة كثابت بن قيس(خطيب رسول الله)،عطارد بن حاصب(خطيب الوفد لدى رسول الله)...إلخ.

 **ھ- نموذج عن خطبة من العصر الإسلامي:**

سنستعرض خطبة النبي محمدۖ التي ألقاها حين صلى بالناس صلاة الجمعة بالمدينة،وفيها يقول:

«الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره وأشهد به وأومن به ولا أكفره وأعادي من يكفره،وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله،أرسله بالهدى والنور والموعظة على فترة من الرسل وقلة من العلم وضلالة من الناس وانقطاع من الزمان ودنو من الساعة وقرب من الأجل،من الله ورسوله فقد رشد،ومن ومن يعصهما فقد غوى وفرط وضل ضلالا بعيدا.وأوصيكم بتقوى الله،فان خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة وأن يأمره بتقوى الله،فاحذروا ما حذركم الله،ولا أفضل من ذلك نصيحة،ولا أفضل من ذلك ذكرا.وان تقوى الله،لمن عمل به على وجل ومخافة من ربه،عون صدق على ما تبغون به من أمر الآخرة.ومن يصلح الذي بينه وبين الله من أمره في السر والعلانية لا ينوي بذلك إلا وجه الله يكن له ذكرا في عاجل أمره وذخرا فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدم،وما كان من سوى ذلك ...والله رؤوف بالعباد،والذي صدق قوله،وأنجز وعده لا خلف لذلك،فإنه يقول عز وجل: (ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد).فاتقوا الله في عاجل أمركم وآجله،في السر والعلانية (ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا).ومن يتق الله فقد فاز فوزا عظيما.وإن تقوى الله يوقي مقته ويوقي عقوبته ويوقي سخطه، وان تقوى الله يبيض الوجوه،ويرضي الرب،ويرفع الدرجة،خذوا بحظكم،ولا تفرطوا في جنب الله.قد علمكم الله كتابه،ونهج لكم سبيله ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين فأحسنوا كما أحسن الله إليكم،وعادوا أعداءه،(وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم) وسماكم المسلمين ليهلك من هلك عن بينة ...ولا قوة إلا بالله.فأكثروا ذكر الله،واعملوا لما بعد اليوم.فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفه الله ما بينه وبين الناس،ذلك بأن الله يقضي على الناس ولا يقضون عليه،ويملك من الناس ولا يملكون منه،الله أكبر،ولا قوة إلا بالله العظيم »(7).

 وعلى العموم تمتاز خطب النبيۖ بالميزات الآتية:

- قصر العبارات وكثرة المعاني.

- الحث على الأعمال الصالحة والنهي عن ارتكاب الباطل.

- التبشير بالجنة والوعيد بجهنم.

- خطبه ارتجالية تبدأ بالبسملة، والحمد(والتي لا تفتتح بالحمد بعد البسملة تسمى بتراء) والثناء على الباري تبارك وتعالى،والشهادة بعد الحمد لله(والتي تخلو من الشهادة بعد الحمد تسمى جذماء) (8).

 2**)-الخطابة في العصر الأموي:**

علا شأن الخطابة في هذا العصر،إذ تناولت شؤون الدولة العامة،ومثلت السياسة أصدق تمثيل،وكانت

السلاح القولي الذي يعتمد عليه الساسة من الأحزاب المختلفة في الدعاية لأنفسهم،واستمالة القلوب إليهم،وتهديد الخارجين عنهم،والحملة على خصومهم ومناوئيهم(9).

 وقد ازدهرت الخطابة السياسية في هذا العصر ازدهارا كبيرا،لم يتوفر لها من قبل ولا حتى في الأعصر القريبة اللاحقة،يقول "أحمد محمد الحوفي" في ذلك":«...لذلك يصح اعتبارها في تلك الفترة نموذجا مكتملا للخطابة العربية في العصور السابقة»(10).فما هي العوامل التي أدت إلى ازدهارها؟

 **أ- عوامل ازدهار الخطابة في العصر الأموي:**

لقد كانت كل الظروف السياسية والاجتماعية والأدبية مهيأة لازدهار فن الخطابة بصفة عامة والخطابة السياسية بصفة خاصة،ومن هاته العوامل نذكر:

- كثرة الأحزاب السياسية وتعددها(أمويين،زبيريين،شيعة،خوارج،روافض)، وكان لكل حزب خطباؤهم المدافعون عنه وعن آرائه،إنهم بمثابة ألسنته الناطقة.

- الحرية القولية التي تمتع بها العربي ،وهي في الحقيقة جزء من تكوينه النفسي،وتدخل في طبعه فهو مفطور عليها بالسليقة،مما يدفعه إلى القول دون حذر أو وجل.

- الحروب والثورات التي كانت تذكي الخطابة وتقدح زنادها،إذ كان أغلبية القواد والفاتحين ذوي ألسن فصيحة،فيتخذون من الخطابة سلاحا لتحميس جنودهم وحثهم على الجهاد.

- تمتع العربي حتى تلك الفترة بموهبته البيانية،وفصاحته المتوارثة عن أجداده الأوائل،ذلك أن سليقتهم لم تكن قد فسدت بعد،فقد كان حرصهم شديدا على سلامة لغتهم وأدبهم.

- تقدير الخطباء والرفع من شأنهم،إذ أصبح بإمكان الخطيب أن ينافس بمقدرته الكلامية حتى أبناء السادة والأشراف،فلم تعد المناصب الحساسة حكرا عليهم(11).

 **ب- أشهر الخطباء من العصر الأموي:**

 لقد نبغ في الخطابة الكثير من البلغاء والفصحاء المقتدرين،وكانوا موزعين على التيارات السياسية آنذاك،وسنذكر أشهرهم:

معاوية بن أبي سفيان،عمر بن عبد العزيز،الحجاج بن يوسف الثقفي،عبد الله بن جعفر بن أبي طالب،عبد الله بن الزبير،عبد الملك بن مروان،الكميت بن زيد،قتيبة بن مسلم،خالد بن عبد الله القسري،المهلب بن أبي صفرة،عمران بن حطان،صعصعة بن صوحان،سحبان بن وائل،خالد بن صفوان،...إلخ.

 **جـ- نموذج عن الخطابة في العصر الأموي:**

من خطب "عمر بن عبد العزيز" هذا المقتطف:«أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثا،ولم تتركوا سدى،وإن لكم ميعادا يحكم الله فيه بينكم،فخاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء،وحرم الجنة التي عرضها السموات والأرض،واعلموا أن الأمان غدا لمن خاف ربه وباع قليلا بكثير وفانيا بباق،ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين،وسيخلفها من بعدكم الباقون.كذلك حتى تردون إلى خير الوارثين...وأيم الله إني لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما عندي فأستغفر الله لي ولكم...»(12).

 وأيضا خطبة لـ"زياد بن أبيه" يعلن فيها جنوحه إلى "معاوية بن أبي سفيان":

«أيها الناس:ادفعوا البلاء ما اندفع عنكم، وارغبوا إلى الله في دوام العافية لكم،فقد نظرت في أمور الناس منذ مقتل عثمان،وفكرت فيهم،فوجدتهم كالأضاحي في كل عيد يذبحون.

 ولقد أفنى هذان اليومان؛يوم الجمل وصفين ما ينيف عن مئة ألف،كلهم يزعم أنه طالب حق،وتابع إمام،وعلى بصيرة من أمره،فإن كان الأمر هكذا فالقاتل والمقتول في الجنة.

كلا،ليس كذلك،ولكن أشكل الأمر،والتبس على القوم.

وإني لخائف أن يرجع الأمر كما بدأ،فكيف لامرئ بسلامة دينه.

وقد نظرت في أمر الناس،فوجدت أحمد العاقبتين العافية،وسأعمل في أموركم ما تحمدون عاقبته ومغبته،فقد حمدت طاعتكم إن شاء الله»(13).

 3**)-الخطابة في العصر العباسي:**

لقد تراجعت مكانة الخطابة بالتدريج في هذا العصر؛ ذلك أن العباسيين على عكس الأمويين لم يطلقوا لها العنان لتزدهر وتحافظ على مستواها الفني الرفيع،كما أن النثر المكتوب أخذ ينافسها بالتدريج إلى أن احتل مكانتها.إضافة إلى ذلك فقد تغيرت مكانة بعض الخطب عما كانت عليه سابقا.

 **أ- أنواع الخطابة في العصر العباسي:**

 **الخطب السياسية:**سعى العباسيون في بداية عهدهم إلى توطيد دعائم حكمهم،فاستعانوا بهذا السلاح القولي الخطير،ولما استتبت لهم أمور الخلافة عملوا على القضاء على كل منافسيهم ومعارضيهم،فـ«ضعفت الخطابة السياسية لعدم توافر حرية القول،ولضعف الأحزاب السياسية المعارضة تحت وطأة العباسيين وشدتهم »(14).

**الخطب الدينية:**بقيت الخطابة الدينية محافظة على مكانتها التي ورثتها،غير أنه بالتدريج برزت عوامل جعلتها تسير نحو الجمود والتقوقع،ذلك أن «بعض الخطباء أخذوا يخطبون بكلام غيرهم.وإن الخطب الدينية أصبحت زاخرة بالقوالب الجاهزة والعبارات المحفوظة التي تفرض نفسها على كل خطبة.كما خرجت في كثير من الأحيان عن الغرض الذي شرعت له،فهذه الخطب شرعت في الإسلام لمعالجة الأحداث المتجددة والوقائع الجارية،ولكنها خرجت عن ذلك في فترات متعددة من العصر العباسي،نظرا لضيق صدر السلطة الحاكمة وعدم تقبلها للنقد»(15).

**الخطب الحربية:**خفت صوتها مع ركود حركة الفتح وضعف شوكة الأحزاب المعارضة في العصر العباسي،وإن كانت الحروب التي شهدها هذا العصر بين العباسيين والروم أو بين العباسيين والخارجين عليهم،قد ظلت حافزا لإلقاء الخطب الحربية بين حين وآخر(16).

**خطب النكاح(الإملاك):**وفيها يعدد الخطيب مناقب الخاطب،وهي من أبسط أنواع الخطب.

**خطب الوفادة:**ضعفت خطب الوفادة في العصر العباسي،فأصبحت قليلة العدد،قليلة الشأن وذلك لأن خلفاء بني العباس لم يكونوا يرحبون بوفود العرب،ووفود البلدان التي كانت تفد على النبيۖ وعلى الخلفاء الراشدين،وتقصد قصور بني أمية فتقابل بالترحيب والتكريم(17).

 **ب-أشهر خطباء العصر العباسي:**

نذكر منهم الخلفاء الأوائل،من أمثال بني العباس وبني هاشم وبني عبد المطلب، وفيهم قال الجاحظ: «لم يكن لهم نظير في أصالة الرأي...في العلم بقريش والدولة وبرجال الدعوة.مع البيان العجيب،والغور البعيد والنفوس الشريفة،والأقدار الرفيعة،وكانوا فوق الخطباء،وفوق أصحاب الأخبار»(18).

ومن الأمراء،داود بن علي وأخواه عبد الله وصالح وأبناؤه عبد الملك وإسماعيل،...ومن الوزراء الفضل ابن سهل وأخوه الحسن.ومن الخطباء سهل بن هارون خازن بيت الحكمة للمأمون،وطاهر بن الحسين،وعبد الله بن طاهر،ومن الخطباء الشعراءعمرو بن كلثوم وخالد بن صفوان(19).

 **جـ- خصائصها:** من حيث:

**الموضوع:**ضاقت على الخطباء مسالك التجديد،فاتخذوا من الموضوعات والمعاني القديمة مجالا للقول. غير أن ما يحمد للخطباء أنهم كانوا يميلون إلى المعاني الواضحة،غير أن الأفكار التي عبروا عنها لم تكن بالعمق الذي ينتظره الباحث،فاشتملت الخطب على أفكار مسطحة؛نظرا لضيق صدر السلطة،وميل الخطباء إلى إيثار السلامة.

**البناء:**كان للخطب هيكل عام يقوم على أربعة أركان هي: التحميد،الصلاة على النبيۖ،عرض الموضوع،الخاتمة.وكانوا يعمدون إلى الإيجاز في أغلب الأحيان،وقليلا ما نجد خطيبا يطيل فيها،وكانت تختتم بالدعاء،حيث يدعو الخطيب لنفسه ولغيره بما فيه الخير والصلاح.

**الأسلوب:**غلب على الخطباء الميل إلى السلاسة في الأساليب والسهولة في العبارات والتراكيب،واستخدام الجمل المستوية الخالية من التعقيد،وقد تحاشى الخطباء استخدام الألفاظ السوقية أوالموغلة في الغموض،فجاءت ألفاظهم مأنوسة مألوفة.

 وكثر في الخطب اللجوء إلى الاقتباس والتضمين من القرآن والأحاديث النبوية الشريفة.وفيما يتعلق بالذوق العام كان الناس يميلون إلى تضمين الأمثال في الخطب لا الشعر،إلا في الخطب القصار والمواعظ،وكان الجمهور من الناس والخطباء يرغبون في توشيح الخطب بالقرآن وبالأمثال السائرة،ولذلك كانوا يسمون كل خطبة لا توشح بالقرآن وبالأمثال بـ«الشوهاء» (20).

 **د- نموذج عن الخطابة في العصر العباسي:**

 سنختار خطبة "للمأمون" ألقاها بخراسان حين بلغه مقتل أخيه الخليفة،إذ أقبل الناس عليه يبايعونه بالخلافة،وفيها يشرح سياسته نحو رعيته...فبعد أن صعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «أيها الناس إني جعلت لله نفسي؛إذ استرعاني أموركم أن أطيعه فيكم،ولا أسفك دما إلا تحله حدوده،وتسفكه فرائضه،ولا أخذ لأحد مالا ولا أثاثا ...ولا أحكم بهواي في غضبي ولا رضاي،إلا ما كان في الله وله،جعلت كله لله عهدا مؤكدا،وميثاقا مشددا.

إني في رغبة في زيادته إياي في نعمتي،ورهبة من مسألته إياي عن حقه وخلقه،فإن غيرت أو بدلت كنت للغير مستأهلا،وللنكال معرضا وأعوذ بالله من سخطه وأرغب إليه في المعونة على طاعته،وأن يحول بيني وبين معصيته» (21).

 إذن،نستنتج مما سبق أن الخطابة كانت من أقوى وسائل الدفاع عن الدين،وهي من العوامل الرئيسية المساعدة في انتشار الإسلام،و كان لها حظ كبير في التحريض على قتال الأعداء والنيل منهم،وقد ازدهرت في العصر الإسلامي؛إذ غذاها الدين بمفردات وأساليب جديدة،أما في العصر الأموي فقد برزت الخطابة السياسية وذلك لبروز الصراعات الحزبية،أما في العصر العباسي فقد تراجعت مكانتها كون النثر المكتوب أو الورقي أصبح ينافس النثر الشفوي•

**الهوامش:**

(1)- محمد عبد المنعم خفاجي:الأدب العربي وتاريخه في العصرين الأموي والعباسي،ص232.

(2)- ينظر:منتدى ستار تايمز 1/11/2013 www.Star.net

(3)- محمد عبد المنعم خفاجي:الأدب العربي وتاريخه في العصرين الأموي والعباسي،ص.ص235-236.

(4)- ينظر:منتدى الجلفة 27/10/2013 www.Aljalfa.net

(5)-ينظر:الجاحظ:البيان والتبيين،ص271.

(6)-الأنفال/الآية12.

(7)- شوقي ضيف:تاريخ الأدب العربي، ص.ص115-116.

(8)- ينظر:عبد الكريم البوغبيش: «تطور الخطابة الإسلامية »5 تشرين الأول(أكتوبر)2001،موقع سابق.

(9)- ينظر:منتدى الجلفة 27/10/2013 www.Aljalfa.net

 (10)-أحمد محمد الحوفي:فن الخطابة،ص209.

(11)- ينظر:المرجع نفسه،ص.ص210-211.

(12)- الجاحظ:البيان والتبيين،ص291.

(13)- محمد عبد المنعم خفاجي:الأدب العربي وتاريخه في العصرين الأموي والعباسي،ص246.

(14)-شوقي ضيف:تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني،دار المعارف،مصر،ط2،ص526.

(15)-محمود عبد الرحيم صالح:فنون النثر في العصر العباسي،دار جرير،عمان،الأردن،ط1،ص.ص18-19.

(16)- المرجع نفسه،ص20.

(17)-المرجع نفسه،ص23.

(18)-الجاحظ:البيان والتبيين،ص199.

(19)- محمد عبد المنعم خفاجي:الأدب العربي وتاريخه في العصرين الأموي والعباسي،ص.ص290-291.

(20)- ينظر: محمود عبد الرحيم صالح:فنون النثر في العصر العباسي،الصفحات25-26-27.

(21)-المرجع نفسه،ص27.

**فن القصة في الأدب العربي القديم:**

 تنوعت فنون النثر العربي وأجناسه عبر العصور بتنوع قوالبه وأشكاله،وان هاته الفنون تتمايز فيما بينها من حيث مفهومها وطبيعتها وتقاليدها وعناصر تكوينها،ولعل من أهم هاته الفنون النثر القصصي،فما حظ أدبنا العربي من فن التأليف القصصي؟وهل عرف العرب فن (القصة)؟

 قبل الإجابة عن هاته التساؤلات وغيرها،لابد أولا أن نحدد مفهوم (القصة)،ذلك أنه إذا أردنا (القصة) بمفهومها اليوم،فهي لم تكن معروفة قديما،و إذا أردناها بمعناها الذي كان سائدا قبل منتصف القرن الثامن عشر،فإنها قد تكون معروفة عند العرب وغيرهم قديما،ومارسوها في وقت مبكر،إذ إنها نتاج أدبي بدأ مع الإنسان القديم يوم أحس بحاجته إلى معرفة أحوال الناس وأخبارهم،ويقول الباحثون«إنها نشأت بنشوء الإنسان،فكان بدء الخليقة قصة وكان الإنسان الأول بطلها الأول،ومنذ أن نظر الإنسان إلى الطبيعة وعجز عن فهمها وإدراك كنهها،أخذ خياله يحيك حولها القصص وينسج الأساطير»(1) ،ويقول "د.عبد الملك مرتاض":«إن القصة في العربية قديمة قدم هذه الكلمة،ولست أريد هنا القصة المشتملة على العناصر الفنية،والمصطلَح عليها حديثا بين النقاد في مختلف الآداب الإنسانية الراقية من زمان ومكان ما...ولكن أقصد الأقصوصة،أو القصة البسيطة التي انبنت على الواقع طورا وعلى الخيال طورا ثانيا،وعلى الواقع الممزوج بالخيال طورا ثالثا»(2) ،ومن هنا لابد أن نبحث:

 **1)- مفهوم القصة:**

 **أ- لغة:**ورد في "الصحاح":«القِصَّةُ الأمر والحدث.وقد اقْتَصَصْتُ الحديث رويته على وجه،وقد قَصَّ عليه الخبر قصصا،والاسم أيضا القَصَصُ بالفتح،وُضع موضع المصدر حتى صار أغلب عليه،القصص بكسر القاف جمع قِصَّة»(3)،وجاء في "القاموس المحيط"«قَصَّ أثره قَصَّا وقَصَصًا تَتَبَّعَهُ...والقَاصُّ من يأتي القِصَّةَ»(4).

 وهي أيضا«الخبر والأمر والحديث.والقص اتباع الأثر.ويقال خرج فلان قصصا في أثر فلان وقصا.وذلك إذا اقتص أثره.وقيل القاص يقص القصص لاتباعه خبرا بعد خبر،وسوقه الكلام سوقا.ويقال تقصصت الكلام إذا حفظته.وقص علي خبره:أورده،والقصص الخبر المقصوص »(5).

 **ب- اصطلاحا:**

هي مجموعة الأحداث مرتبة ترتيبا نسبيا تنتهي إلى نتيجة طبيعية لهذه الأحداث،وتلك الأحداث المرتبة تدور حول موضوع عام هو التجربة الإنسانية نفسية أو اجتماعية(6) .

 وعُرفت كذلك «بأنها حكاية تحكي حياة في زمن يرويها الكاتب»(7).

 **2)-نشأتها وتطورها عبر العصور:**

يبدو أن سوء الطالع والغبن قد رافقا القصة العربية منذ نشأتها،فقد تواطأ بعض الدارسين المجحفين على أن التراث العربي لم يهتم بفن (القصة)،كما اهتم بغيره من الفنون الأخرى،كالشعر والخطابة والمناظرة والرسائل،...إلخ،يقول "د.محمد غنيمي هلال" على سبيل المثال في هذا المجال:«...أما في الأدب العربي ]السطر للمؤلف[،فلم يكن في قديمه للقصة شأن يذكر،وكان لها مفهوم خاص لم ينهض بها،ولم يجعلها ذات رسالة اجتماعية أو إنسانية.على أن القصة - في الأدب العربي القديم- لم تكن من جوهر الأدب(كالشعر والخطابة والرسائل مثلا)،بل يتخلى عنها كبار الأدباء لغيرهم من الوعاظ وكُتَّاب السير والوصايا،يوردونها شواهد قصيرة على وصاياهم وما يسوقون من حكم »(8).

 غير أننا لن نستكين لهذا الرأي أو غيره من الآراء المجحفة،التي أساءت الظن بالقصة العربية،والتي نظرت إليها من زاوية ضيقة ولن ننساق بحثا عن إثبات وجود قرائن ودلائل وحجج نسفّه بها آراءهم أو نرد عليها،ذلك أن فئة من النقاد والدارسين العرب المقتدرين قد تصدت لهذه المهمة،وردت على هذه الفئة ردودا مفحمة،وكانت النتيجة (التسليم) بوجود قصة عربية قديمة،وسنقوم بإيراد شواهد من عيون أدبنا القصصي،تبين أسبقية العرب في هذا المضمار:

 **أ-العصر الجاهلي:**

لقد عرف الأدب العربي فن (القصة) في مختلف عصوره،وهي قديمة في التراث العربي،وكان الجاهليون ولوعين بهذا الفن ولا ينكر كاتب متمرس أو ناقد حصيف ذلك،يقول "د.طاهر أحمد مكي" شاهدا على هذه الحقيقة التاريخية:«...في تصورنا إن القصة موجودة في التراث العربي،لا بمواصفات القصة الفنية الحديثة بالطبع،ولكن بمميزات خاصة فرضتها طفولة هذا الفن، وبداياتها في العصور الوسطى متأثرة بأصول عربية واضحة كقصص السندباد،وكليلة ودمنة،وحي بن يقظان،بل وجدت أشكال مختلفة للقصة في التراث العربي،ولكل شكل مميزاته الخاصة.فالقصة في السير تختلف عن القصة في بخلاء الجاحظ،وهذه تختلف عن القصة في المقامات»(9).

 أما الـ"د.شوقي ضيف" فقد استفاض في الحديث عن هذا الموضوع - تقريبا- في كل مؤلفاته التي أرّخ فيها لتاريخ الأدب العربي،يقول على سبيل المثال في كتابه "الفن ومذاهبه في النثر العربي":«من المحقق أنه وجدت عندهم [أي عند العرب]ألوان من القصص،والأمثال،وسجع الكهان،ومن المؤكد أنهم كانوا يشغفون بالقصص شغفا شديدا.وساعدتهم على ذلك أوقات فراغهم الواسعة في الصحراء،فكانوا حين يرخي الليل سدوله يجتمعون للسمر،وما أن يبدأ أحدهم في ضرب خيامهم بقوله(كان يا ما كان) حتى يرهف الجميع أسماعهم إليه،وقد يشترك بعضهم معه في الحديث،وشباب الحي وشيوخه،ونساؤه وفتياته المخدرات وراء الأخبية،كل هؤلاء يتابعون الحديث في شوق ولهفة،ومن غير شك كان يفيض القصاص على قصصه من خياله،حتى يبهر سامعيه وحتى يملك عليهم قلوبهم.وقد دون الكُتاب العباسيون ما انتهى إليهم من هذه القصص مع تغيير في الصياغة،وإن كان من الحق أنها تحتفظ بكثير من سمات القصص القديم.وظلت تنبض بروحه وحيويته،وربما كان أكثر ألوان القصص شيوعا على ألسنتهم أيامهم وحروبهم،وما سجَّله أبطالهم من انتصارات مروعة،وما منيت به بعض قبائلهم من هزائم منكرة،وكانوا يقصون كثيرا على ملوكهم من المناذرة والغساسنة، ومن سبقوهم أو عاصروهم من ملوك الدولة الحِمْيَرِيَّةِ »(10).

وينبغي أن نقرأ رأي "د.فاروق خورشيد"،الذي يصر على أصالة وعراقة هذا الفن؛لأن الكثير من الشواهد تدل على ذلك،-فحسبه- إن العرب كانوا شغوفين بالتاريخ والحكايات وكانت لهم قصص كثيرة،وقد عرفوا في الجاهلية ألوانا من القصص،وكان لهم تراثهم الأسطوري،مستدلا على ذلك بما ورد في القرآن الكريم من قصص،إذ أشار إلى أنه إدراك لخطر القصة وأثرها في نفوس العرب،وقد ذهب إلى أبعد من ذلك،فأكد أن القصة كانت تحظى بالمقام الأول،وأنها كانت الفن المفضل عند الغالبية العظمى،بينما حفلت أقلية خاصة بأمر الشعر والخطابة،وربما كان السر –حسبه- في انصراف المسلمين عن القصص أنهم اعتبروها من الخرافات الجاهلية،فأهملوها خوفا على دينهم(11).

 إذن، فقد أجمع الدارسون على أن العرب في جاهليتهم كانت لهم قصص كثيرة،فقد كانوا مشغوفين بالتاريخ والحكايات التي تدور حول أجدادهم وملوكهم وفرسانهم وشعرائهم،وإن مجموعة من الكتب العربية التراثية تدل على ذلك،نذكر منها:"الأغاني" لأبي الفرج الأصفهاني الذي يكاد يكون ذخيرة حية من القصص عن الشعراء ومجالسهم مع الملوك،و"الأمالي" للقالي،و"صبح الأعشى" للقلقشندي،و"العقد الفريد" لابن عبد ربه،وكتب الأعلام والتراجم والسير،...إلخ،مما لا يدع للشك مجالا في أن هذا الفن القصصي تناول الحياة الجاهلية بكل مظاهرها ومعتقداتها،وكان «هذا القصص متنوعا،فمنه قصص العبرة والاتعاظ والقصص الجاري على ألسنة الحيوانات،على غرار كتاب كليلة ودمنة،وقصص الأسفار،وقصص المجون والخلاعة،وقصص النوادر والطرائف»(12)،وهذا الغنى والتنوع يؤكد أنه فن أصيل قديم متجذر مر بمراحل كبرى.

 كما أن كتب التاريخ التي عادت إلى المرحلة الجاهلية،أشارت إلى وجود عدد ممن تصدوا لمهمة القص،يقول الـ"د.ناصر الدين الأسد" في ذلك: «...كان في الجاهلية من ينصب نفسه لتعليم الأخبار وقصص التاريخ،فيقصده من يقصده يستمليها ويكتبها.وقد أنبأنا النبأ اليقين بذلك كتاب الله»(13)،نذكر منها قوله تعالى: «وَقَالُوْا أَسَاطِيْرُ اَلْأَوَّلِيْنَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَّ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيْلاَ»(14)،وقوله: «وَإِذْ تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيْرُ اَلْأَوَّلِيْنَ»(15).

 **ب-العصر الإسلامي:**

وفي بداية أخبار الدعوة المحمدية أن من الناس من اعتقد أن النبي "محمد" صلى الله عليه وسلم قاص،وقد جاءت فيه صورة كاملة تحمل هذا الاسم،وهي سورة "القصص"،كما وردت في القرآن الكريم لفظة (قَصَّ) واشتقاقاتها في عدة مواضع منه،نذكر منها قوله تعالى:

-«تِلْكَ اَلْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا»(16).

-«وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ»(17).

-«نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ»(18).

-«وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيْهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمِ لَا يَشِعُرُوْنَ»(19).

-«قٌلْ إِنِّيْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبّْي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِيْ مَا تَسْتَعْجِلُوْنَ بِهِ إِنِ اَلْحُكْمُ لِلَّهِ يَقُصُّ اَلْحَقَّ وَهُوَّ خَيْرُ اَلْفَاصِلِيْنَ»(20).

-«لَقَدْ كَانَ فِيْ قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِيْ اَلْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيْثاً يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيْقَ الَّذِيْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيْلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُوْنَ»(21).

 إذن ،فاستخدامات هذا الفعل وردت متعددة المعاني،فهي تارة بمعنى النبأ والإخبار وطورا بمعنى تقصي الأثر وتتبعه،وأحيانا بمعنى العدل والفصل،وأحيانا أخرى بمعنى العبرة والاتعاظ،...إلخ،ولولا وجود القصة قديما في العصر الجاهلي ما خاطب الله مشركي مكة بكثير من القصص المؤثر.

 وقد ساق القرآن الكريم كثيرا من القصص منها القصة القصيرة،كقصة (صاحب الجنتين) في "سورة الكهف،وفي السورة نفسها جاءت قصة (أهل الكهف)،وقصة (موسى والخضر)،وقصة (ذي القرنين).

وجاءت قصة(سليمان والهدهد)،و(سليمان والملكة بلقيس) ملكة سبأ،وقصة (سليمان والنملة) في "سورة النمل"،وجاءت قصة (أصحاب الجنة) في "سورة القلم"،...

 كما ساق القرآن القصة المتوسطة الطول،كقصة (مريم مع قومها)،وجاءت القصة الطويلة التي تشبه الرواية في "سورة يوسف"،كما ساق القصة البالغة الطول المتعددة المواقف كل موقف في موضع،ولكن المواقف يتمم بعضها بعضا حتى تكتمل كما حدث في قصتي(موسى وإبراهيم عليهما السلام) (22).

 وكان هذا القصص القرآني متعدد الفوائد والأهداف،نذكر أهمها:

- إن إيراد أخبار الأمم الماضية إنما هو إظهار لنبوته،ودلالة على رسالته،ذلك أن النبي لم يختلف إلى مؤدب ولا إلى معلم،ولم يفارق وطنه بمدة يمكنه فيها الانقطاع إلى عالم يأخذ عنه الأخبار.

- إن الله قص عليه تلك القصص ليكون أسوة وقدوة بمكارم أخلاق الرسل والأنبياء المتقدمين والأولياء الصالحين فيما أخبر الله عنهم.

- قص عليه تثبيتا له وإعلاما بشرفه وشرف أمته.

- قص عليه تأديبا وتهذيبا لأمته.

- قص عليه أخبار الماضين من الأنبياء والأولياء إحياء لذكرهم وآثارهم(23).

 كما أن إيراد تلك القصص في القرآن الكريم كان أحد مظاهر إعجازه،ذلك أن لكل نبي معجزة خصه بها الله،فكان من بين تلك المعجزات إنباء الرسول بأخبار الأمم السابقة وحتى البائدة (كعاد وثمود)،ذلك أنه كان «أُميا لا يكتب ولا يحسن أن يقرأ،وكذلك كان معروفا عن حاله أنه لم يعرف شيئا من كتب المتقدمين وأقاصيصهم وأنبائهم وسيرهم،ثم أتى بجمل ما وقع وحدث من عظيمات الأمور،ومهمات السير،من حيث خلق الله آدم عليه السلام إلى حين مبعثه،ولما كان الأمر مستحيلا إلا عن تعلم،وهو لم يكن كذلك،وجب ألا يكون ذلك إلا بتأييد من جهة الوحي »(24).

 وقد حفظت لنا كتب التراث العربي أسماء عدد من القصاص،نذكر منهم "النضر بن الحارث بن علقمة"(2ھ/624م) القاص القرشي،وله«اطلاع على كتب الفرس وغيرهم.وهو أول من غنّى على العود بألحان الفرس.آذى الرسول كثيرا مع أنه ابن خالته.وقد أسره المسلمون في وقعة بدر.وما لبث أن قتل»(25)،ونفّذ فيه أمر القتل الصحابي الجليل "علي بن أبي طالب" رضي الله عنه،ومما يُروى عنه في هذا المجال أنه «كان يجلس مجلس النبي (ص) بعد قيامه منه ويقول لقومه:إن محمدا يحدثكم بحديث عاد وثمود...،وأنا والله يا معشر قريش أحسن حديثا منه،أحدثكم بحديث رستم وأسفنديار»(26) ،ثم إذا انتهى من مروياته يقول: «بماذا محمد أحسن حديثا مني،وما حديثه إلا أساطير الأولين اكتتبها كما أكتتبها»(27)،وفي هذا إشارة واضحة إلى وجود عدد من القصص المحفوظة والمدونة في محفوظات أو كتب،وكان هذا القاص يعود إليها لينافس الرسول الأعظم،وفيه نزلت الآية الكريمة: «وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوْا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنَّ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيْرُ اَلْأَوَّلِيْنَ»(28)،وكذلك قوله تعالى: «وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيْمٍ. يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ إِذْ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعذَابٍ أَلِيْمٍ»(29).

 نذكر كذلك القاص الثاني الذي ذكرته كتب الأخبار والسير وهو "تميم بن أوس بن خارجة الداري"(40 ھ/660م)،و«لم يتوجس الرسول من هذا القاص،بل إنه قربه إليه،وقام برواية قصة رواها،وهي قصة الجساسة والدجال»(30)،كما سمح له الخليفة "عمر بن الخطاب"،فـ«كان يقص في يوم الجمعة عقب كل صلاة»(31)،وكان يحضر مجلسه،وكان أيضا بعد ذلك «يقص يومين في الأسبوع بدلا من اليوم الواحد»(32)في عهد الخليفة "عثمان بن عفان" رضي الله عنه.

 أما "علي بن أبي طالب" فكان يراقب القصاص و يتحقق من كفاءتهم الوعظية(33).

 وممن خاضوا غمار هذا الفن الصحابي الجليل وحبر الأمة "عبد الله بن عباس بن عبد المطلب"( 68ھ /687م)،حيث كان يخصص«يوما للفقه،ويوما للتأويل،ويوما للمغازي،ويوما للشعر وأيام العرب»(34).

 **جـ-العصر الأموي:**

وفي العصر الأموي شهد هذا الفن تطورا ملحوظا،فقد كان الخليفة "معاوية بن أبي سفيان" «يستمع إلى الأخبار والسير،ويستقدم القصاص والإخباريين إلى قصره»(35)،ويوليهم عناية كبيرة،كما يخصص لهم وقتا،فقد كان«ينام ثلث الليل،ثم يقوم فيقعد،فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد،فيقرأ عليه ذلك غلمان مرتبون قد وكلوا بحفظها وقراءتها،فيمر بسمعه كل ليلة جُمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات ثم يخرج فيصلي»(36)،فإذا«صلى الفجر جلس للقاص حتى يفرغ من قصصه»(37).

 ومن أشهرالقصاص الذين جالسهم واستمع إليهم "معاوية بن أبي سفيان"،نذكر الخطيب وعالم الأنساب "النخار بن أوس بن أُبير"،ويقال إنه «دخل على معاوية وهو ملتف بعباءة فازدراه معاوية.فقال:يا أمير المؤمنين إن العباءة لا تكلمك وإنما يكلمك من فيها،ثم كان من ندمائه»(38)ومحدثيه.

 نذكر كذلك الحكيم والخطيب "عٌبيد بن شرية الجرهمي"،ويقال إنه أول من صنف الكتب من العرب...استحضره "معاوية" من صنعاء إلى الشام،فقص عليه أخبار الماضين،وأمر "معاوية" بتدوينها.أملى كتاب الملوك وأخبار الماضي وكتاب الأمثال(39).

 وهذا معناه أن من كان يتصدى لمهمة القص في هذا العصر أشخاص متميزون ومعنيون، وعلى قدر كبير من الثقة والزهد والورع والثقافة،وعلى علم بأمور الدين والفقه والحديث.

 وهذا جدول بأحوال القصاص وصفاتهم(40):

|  |  |
| --- | --- |
| الصفة والحال | اسم القاص |
| ثقة،حافظ،ثبت في الحديث. | إبراهيم التيمي،أبو عمر الجوني،وهب بن منبه،الحسن البصري،كعب الأحبار،محمد بن كعب،مطرف بن عبد الله،مسلم بن جندب،محمد بن اسحق،تميم الداري. |
| روى عن الرسول،أو عن الصحابة. | تميم الداري،إبراهيم التيمي،أبو حازم،أبو عمر الجوني،وهب بنمنبه،الحسن البصري،معاوية الكندي،مطرف بن عبد الله،سعيدبن جبير،عبد الله بن رواحة،الأسود بن سريع،كعب الأحبار. |
| فقيه،عالم،قاض،مفسر. | أبو الخير المزني،أبو إسماعيل الحضرمي،كعب الأحبار،مطرفبن عبد الله،سعيد بن جبير،عبيد بن عمير. |
| ورع،زاهد،صحيح الحديث. | صالح المري،تميم الداري،سعد بن جبير،يزيد الرقاشي،ابراهيمالتيمي. |

 إذن،فقد كان للقصص في تلك الفترة مكانة عظمى،ذلك أنه«بدأ يشارك في الحياة السياسية والفكرية،ويقوم كالشعر بالتأثير في النفوس،وتجييشها خلف هذا الحزب أو ذاك.وبلغ من مكانة القصص وقوة فعله في النفوس أن القصاص صاروا يرافقون الجيوش إلى الفتوح ليقصوا عليهم ويحرضوهم على القتال»(41)،كما أن تلك القصص عكست في كثير من الأحيان عقلية الإنسان العربي،يقول "طه حسين" في ذلك: «...سنجد فيها [أي القصص]إشارة إلى أيام العرب،يضطر المفسرون والشراح إلى تفسيرها،وأن يقصوا علينا أخبار هذه الأيام التي كان العرب يقولون إنها وقعت بسبب داحس والغبراء،وفي حرب البسوس،وفي يوم الكلاب،وما كان بين عامر وتميم أوأيام الفُجَّارِ وغيرها.كل هذه القصص كانت تُروى وتُحكى في مدينتي البصرة والكوفة،عندما استقر العرب في هذين المصرين.وكان الذين يتحدثون بها إلى الناس هم الأعراب.والذي يظهر في هذه القصص ليست العقلية الفارسية ولا اليونانية،بل العقلية العربية التي تريد أن تثبت للنابهين من القبائل أعظم حظ من الشجاعة في هذه القصص،التي تقص أيام العرب،ومغازي النبي وأوائل الفتح الإسلامي...هذه هي القصص العربية الخالصة التي ترى فيها النثر العربي الخالص»(42).

 **د-العصر العباسي:**

عندما قامت الدولة العباسية امتد سلطان النثر شيئا فشيئا،واتسعت موضوعاته إلى أكثر مما كانت عليه في آواخر العصر الأموي.وكان من أسباب هذا اشتداد الاتصال بين العرب والفرس وغيرهم من الموالي في الشام والجزيرة العربية والعراق(43)،فظهرت ألوان جديدة من القصص نذكر منها:

ألف ليلة وليلة(٭)،المقامات،كليلة ودمنة،رسالة التوابع والزوابع،رسالة الغفران،قصة حي بن يقظان،...إلخ.

 فأما كتاب (كليلة ودمنة) لصاحبه "عبد الله بن المقفع" (714-759م)،فـ«ينطوي على حكايات وأقاصيص على ألسنة الطير والبهائم التي تمثل الحياة البشرية في نواحيها المختلفة،لما نجده فيها من النزعات والأهواء والتيارات الفكرية ما نجده بين البشر.كما نجد في الحوارات التي يديرها ابن المقفع ببراعة بين أطرافها الجدل والفقه والمنطق وعلم الاجتماع والسياسة...»(44)،إنه ببساطة خرافة تنطوي على مجموعة من الحكم والأمثال ذات طابع تعليمي صيغت على ألسنة الحيوان،وهي تدور«حول اثنين من بنات آوى اسم الواحد كليلة واسم الآخر دمنة »(45).

 وقد اختلف الأدباء والمؤرخون في أصل الكتاب،فبعضهم يرى أنه مترجم عن الفهلوية القديمة،وبعضهم الآخر يرى أنه من وضع "ابن المقفع" نفسه،في حين رأى فريق ثالث أنه «كتاب هندي عربي فارسي ؛هندي باعتبار أصله؛فارسي لأنه انتقل إلى أيدي الفرس فترجموه إلى لغتهم وزادوا فيه أبوابا،عربي لأن الترجمة العربية التي أخذت عن الفارسية صارت هي الأصل والمصدر بعد أن ضاعت الترجمة الفارسية»(45).

 وقد صيغت حكاياته في قالب رمزي؛لأنه يعظ فيه الخليفة العباسي "أبا جعفر المنصور"،و«يدعوه إلى العدل واللين في معاملة الرعية،والكف عن الاستبداد والتعسف»(46).

وإذا كان الكتاب السابق مدار خلاف،فإن رسالة (التوابع والزوابع) للشاعر الكاتب الأندلسي "أحمد بن شهيد"(382-462ھ)،لا يرقى إليها الشك،وهي «رحلة خيالية في عالم الجن يحكي فيها كيف التقى بشياطين الشعراء السابقين من توابع(مفرده تابع و تابعة أي ما يتبع الإنسان من الجن)والزوابع (جمع زوبعة،اسم شيطان أو اسم رئيس الجن) وتجري بينه وبينهم مناظرات ومساجلات أدبية،وكذلك بينه وبين ما يجده من مخلوقات في عالمهم،وهو ينتصر في هذه المساجلات الأدبية دائما...وتسود هذه الحكاية روح فكهة مع سخرية سطحية »(47).

 وفي السياق نفسه نشير إلى (رسالة الغفران) للشاعر "أبي العلاء المعري"،وهي«رسالة نثرية كتبها في موضوع خيالي عن زيارة للعالم الآخر،وما جرى في هذه الزيارة من الحوار بينه وبين شعراء الجاهلية والإسلام وغيرهم من الأدباء»(48)،وقد كانت هذه الرسالة مثار وحي في القرون الوسطى للشاعر الإيطالي العظيم "دانتي ألليجيري"(1265-1331م) في أهم آثاره وهي "الكوميديا الإلهية".

 ومن القصص العربية القديمة قصة (حي بن يقظان) للفيلسوف والطبيب "ابن طفيل"(500 ھ -1106م)،وهي«من أهم القصص التي ظهرت في العصور الوسطى في نظر كثير من النقاد،فهي رائدة فن القص إلى جانب ألف ليلة وليلة»(49)،وهي ذات طابع فلسفي على طريقة الصوفية،«حي يقصد به العقل الفعال أو النفس الملكية المفكرة،وهذا العقل حي دائما،غير متغير لا يهرم أبدا،وابن يقظان كناية عن صدوره عن القيوم الذي لا تأخذه سِنَة ولا نوم»(50).

 والقصة السابقة تحتوي على جوانب نضج كثيرة، وقد تأثر بها الروائي والشاعر الأمريكي "دانييل دوفو"(1660-1731م) فكتب رواية"روبنسون كروزويه"،وهي سيرة ذاتية تخييلية محاكيا فيها "ابن طفيل"...

هذه هي أهم الخطوط العريضة للقصة العربية التراثية،التي وجدت في كل عصوره،كما وجدت تبعا لذلك فئة من القاصين تصدت لهذه المهمة،كما أثَّرت تلك القصص في غيرهم من الشعوب والأمم الأخرى•

**الهوامش:**

(1)- أحمد أبو أسعد:فن القصة،منشورات دار الشرق الجديد،بيروت،لبنان،ص48.

(2)- عبد المالك مرتاض:القصة في الأدب العربي القديم،الشركة الجزائرية للتأليف والترجمة والطباعة والتوزيع والنشر،الجزائر،ط1،ص68.

(3)-الجوهري(إسماعيل بن حماد):الصحاح،ج3،تح:أحمد عبد الغفور،دار العلم للملايين،بيروت،لبنان،ط2،1979،ص

1051.

(4)- الفيروزآبادي(مجد الدين محمد بن يعقوب):القاموس المحيط،مادة قصص،دار الجيل،بيروت،ص324.

(5)- ابن منظور:لسان العرب،مادة قصص،ج7،دار صادر،بيروت،ص.ص74-75.

(6)- علي عبد الحليم محمود:القصة العربية في العصر الجاهلي،ط3،1979،ص25.

(7)- علي نجيب عطوي:تطور فن القصة اللبنانية،منشورات دار الآفاق الجديدة،بيروت،ط1،1985،ص19.

(8)- محمد غنيمي هلال:الأدب المقارن،ص220.

(9)- طاهر أحمد مكي:فصول في النقد الأدبي وتاريخه،دار المعارف،القاهرة،ط2 ،1978،ص46.

(10)- شوقي ضيف:الفن ومذاهبه في الثر العربي،دار المعارف،ط8،ص15.

(11)- ينظر:فاروق خورشيد:في الرواية العربية(عصر التجميع)،نقلا عن:محمد صالح شنطي،دار الأندلس للنشر والتوزيع بحائل،السعودية،ص.ص341-342.

(12)- جواد علي:المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام،ج3،دار العلم للملايين،بيروت،1976،ص370.

(13)- ناصر الدين الأسد:مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية،د.المعارف،ط5،1978،ص37.

(14)- الفرقان/الآية5.

(15)- القلم/الآية15.

(16)- الأعراف/الآية101.

(17)- هود/الآية120.

(18)- الكهف/الآية13.

(19)- القصص/الآية11.

(20)- الأنعام/الآية57.

(21)- يوسف/الآية111.

(22)- ينظر:إبراهيم عوض:«متى عرف الأدب العربي فن القصة»،فيliterature.Language www.alukah.net̸

(23)- ينظر:عبد الله إبراهيم:السردية العربية(بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي)،ص50.

(24)- الباقلاني(أبو بكر محمد بن الطيب):إعجاز القرآن،تحـ:السيد أحمد صقر،د.المعارف،1963،ص34.

(25)- ابن الأثير(أبو الحسن علي بن الكرم):الكامل في التاريخ،ج2،دار الفكر،بيروت،1978،ص26.

(26)- ابن النديم(محمد بن اسحق):الفهرست،تحـ:رضا تجدد،طهران،1971،ص364.

(27)- ابن الأثير:الكامل في التاريخ،ص49.

(28)- الأنفال/الآية31.

(29)- الجاثية/الآيات7-8.

(30)- المسعودي(أبو الحسن بن علي):أخبار الزمان،دار الأندلس،بيروت،1966،ص122.

(31)- محمود تيمور:الأدب الهادف،مكتبة الآداب،القاهرة،1959،ص120.

(32)- المرجع نفسه،ص121.

(33)- ينظر:عبد الله إبراهيم:السردية العربية،ص56.

(34)- ابن سعد(محمد بن سعد):الطبقات الكبرى،ج2،د.صادر،بيروت،1968،ص368.

(35)- ابن الجوزي(أبو الفرج عبد الرحمن):كتاب القصاص والمذكرين،تحـ:مارلين سوارتز،دار المشرق،بيروت،1971،

ص36.

(36)- المسعودي:مروج الذهب ومعادن الجوهر،ج3،تحـ:شلال بلا،منشورات الجامعة اللبنانية،بيروت،1965،ص222.

(37)- المرجع نفسه،ص220.

(38)- خير الدين الزركلي:الأعلام،ج3،دار العلم للملايين،بيروت،ط5،1980،ص14.

(39)- ينظر:المسعودي:مروج الذهب،ج2،ص208.

(40)- عبد الله إبراهيم:السردية العربية،ص57.

(41)- محمود تيمور:الأدب الهادف، ص125.

(42)- طه حسين:من حديث الشعر والنثر،د.المعارف،ط12،ص.ص35-36.

(43)- المرجع نفسه،ص43.

(٭)- ألف ليلة وليلة:خصصت لهذا الكتاب التراثي الضخم درسا مستقلا في الصفحات الموالية؛نظرا لأهميته القصوى في تاريخ الفنون النثرية السردية العربية القديمة،ضم مجموعة من العناصر ستأتي في موضعها،مثله مثل فن (المقامة) العربي الدرس الذي يليه في الترتيب مباشرة،والذي يستحق هو الآخر عناية خاصة.

(44)- بيدبا:كليلة ودمنة،نقله من الفهلوية إلى العربية "ابن المقفع" ،شرحه سامي ج.الخوري،دار الجيل،ط3،2009،ص9.

(45)- المصدر نفسه،ص11.

(46)- شوقي ضيف:تاريخ الأدب العربي،العصر العباسي الأول،ص520.

(47)- محمد غنيمي هلال:المدخل إلى النقد الأدبي الحديث،القاهرة،ط2،1962،ص.ص420-421.

(48)- المرجع نفسه،ص136.

(49)- ماجدة حمود:مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن،اتحاد الكتاب العرب،دمشق،سوريا،ص25.

(50)- محمد غنيمي هلال:الأدب المقارن،ص231.

**سجع الكهان:**

يعد السجع من مميزات البلاغة الفطرية،فهو يجري على ألسنة البشر في أكثر اللغات،بصورة فطرية ومضطردة،في أمثالهم وحكمهم وخطبهم؛لما فيه من موسيقى رائعة،لا ينكر دورها في التأثير على العقول والقلوب،بل هو علامة من علامات رقة الأسلوب ونصاعته،ورونقه وجزالته،وكلما كانت الألفاظ المسجوعة ذات رقة ورنين،ومعنى كريم،وأناقة وحسن ترنيم،فإن النفس الإنسانية تشتاق لسماعها،والأذن ترتاح إلى إيقاعها(1).

 وقد ظهرت في العصر الجاهلي طائفة من العرب احترفت الكهانة،وادَّعت معرفة الغيب،واتخذت الأسلوب البلاغي السابق وسيلة لإيصال رسالتها،أطلق عليهم الكهان وأسمي أسلوبهم بـ«سجع الكهان ».

  **1)-مفهومه:**

 **أ- لغة:** يقول "ابن منظور":«سَجَعَ يَسْجَعُ سَجْعًا:استوى واستقام وأشبه بعضه بعضا،قال ذو الرمة:

قطعت بها أرضا ترى وجه ركبها إذا ما علوها ملفا غير ساجع.

والسَّجْعُ:الكلام المقفى والجمع أَسْجَاعٌ وأَسَاجِيْعٌ وكلام مُسَجَّعٌ،وسَجَعَ يَسْجَعُ سَجْعًا وسَجَعَ تَسْجِيْعًا:تكلم كلاما له فواصل كفواصل الشعر من غير وزن وصاحبه سَجَّاعَة وهو من الاستواء والاستقامة والاشتباه كأن كل كلمة تشبه صاحبتها» (2).

 **ب-اصطلاحا:** يتضح من التعريف اللغوي أن السجع من المحسنات البديعية،وهو يقابل القافية في الشعر،والفاصلة في القرآن الكريم،تقول "هدى عطية عبد الغفار" معرفة إياه: «سجع الرجل إذا نطق بكلام له فواصل كقوافي النثر من غير وزن» (3).

 بمعنى أوضح هو أن تتفق الفواصل في الحرف الأخير من الكلام المنثور.

**2)- الإسلام وسجع الكهان:**

ظهرت في الجاهلية طائفة من العرب تزعم أنها تطلع على الغيب،وتعرف ما أتى الغيب بما يلقى إليها توابعها من الجن،وكان واحدها يسمى كاهنا كما يسمى تابعه الذي يوحي إليه باسم الـ(رئي).وأكثرهم كان يخدم بيوت أصنامهم وأوثانهم،فكانت لهم قداسة دينية،وكانوا يلجؤون إليهم في كل شؤونهم،وقد يتخذونهم حكاما في خصوماتهم ومنافراتهم،على نحو ماكان من منافرة "هاشم بن عبد مناف" و"أمية بن عبد شمس" واحتكامهما إلى الكاهن الخزاعي وقد نفر "هاشما" على "أمية"،وكانوا يستشيرونهم ويصدرون عن آرائهم في كثير من شؤونهم الخاصة(4).

 وقد نقلت لنا كتب التاريخ والسير أسماء مجموعة كبيرة ممن احترفوا الكهانة،نذكر منهم:

ورقة بن نوفل،قس بن ساعدة الإيادي،شق بن أنمار بن نزار،أكثم بن صيفي،أمية بن أبي الصلت،سطيح بن مازن بن غسان،مسلمة بن حبيب،ربيعة بن ربيعة،عراف اليمامة رباح بن عجلة،عراف نجد الأبلق الأسدي،زيد بن عمرو بن نفيل،المأمور الحارثي،الكاهن الخزاعي،علاف بن شهاب التميمي،زهير بن أبي سلمى،زبراء كاهنة بني رئام،كاهنة سهم،الكاهنة سجاح التميمية،سويد بن عامر المصطلقي،وكيع بن سلمة بن زهير الأيادي،أبو قيس صرمة بن أبي أنيس،عامر بن الضرب العدواني،المتلمس بن أمية الكناني(5).

 غير أن النصوص التي حفظتها كتب التاريخ والأدب قليلة مقارنة مع عددهم الكبير،إذ ضاعت واندثرت بموت أصحابها،كما أن الإسلام شن حملة كبيرة على سجع الكهان،ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان قد نهى عنه،فمما روي أن: «اقتتلت امرأتان من هزيل،فرمت إحداهما الأخرى بحجر،فقتلتها وما في بطنها،فاختصموا إلى رسول اللهۖ فقضى رسول الله أن دية جنينها غرة:عبد أو وليد،وقضى بدية المرأة...فقال الرجل:يا رسول الله،أنغرم من لا أكل ولا شرب،ولا صاح،ولا استهل،فمثل هذا يطل؟فقال رسول الله:إنما هذا من إخوان الكهان» (6).

 ويرجع الباحثون أسباب قلة نصوص سجع هؤلاء الكهان إلى عدة أسباب منها:

- عدم تدوين هذه النصوص،وإنما تداولها الناس شفويا.

- عدم إقبال الناس عليها لأنها تخالف الكثير من المعتقدات الدينية،وخاصة ما يتعلق بالأمور الروحية.

- محاربة الإسلام لسجع الكهان والكهنة.الحروب التي شنت ضد "محكم اليمامة" و"مسلمة بن حبيب" وكهنة اليمن والنهايات التي آل إليها هؤلاء معروفة في كتب التاريخ والسير(حروب الردة) (7).

**3)-نموذج عن سجع الكهان:**

سنقوم بانتقاء نموذج عن هذا الأسلوب النثري وهي أسجاع ل"مسيلمة " الذي لقب بالكذاب:

|  |  |
| --- | --- |
| بعض أسجاع مسلمة بن حبيب(٭) | ما يقابلها من القرآن الكريم |
| -«إنا أعطيناك الجواهر.فصل لربك وهاجر.إن مبغضك رجل فاجر».-«إنا أعطيناك الكواثر.فصل لربك وبادر.وفي الليالي الغوادر.واحذر أن تحرص أو تكاثر». | - سورة "الكوثر": «إِنَّ أَعْطَيْنَاكَ اَلْكَوْثَرَ.فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ.إِنَّ شَانِئَكَ هُوَّ اَلْأَبْتَرُ». |
| - سورة الشمس: «والشمس وضحاها.في ضوئها وجلاها.والليل إذا عداها.يطلبها ليغشاها.فأدركها حتى أتاها.وأطفأ نورها ومحاها». | - سورة "الضحى": «وَالشَّمِسِ وَضُحَاهَا.وَاَلِقَمَرِإِذَا تَلَاهَا.وَالنَّهَارَ إِذَا جَلاَهَا.وَاللَّيَلَ إِذَا يَغْشَاهَا». |

 نلاحظ أن هاته الأسجاع تشبه القرآن الكريم إلى حد بعيد،غير أن الثابت تاريخيا أن معظم ما وصل إلينا من الأدب الجاهلي أصابه الانتحال،لذا فإننا نرى أن تلك الأسجاع وغيرها مما تتداوله الكتب،وتنسبه لقس بن ساعدة،أو شق بن صعب إنما هو مردود،وألف في عصور لاحقة لأغراض عدة،فالقرآن الكريم لون متميز من ألوان الكلام،لم يأت شيء مثله قبله ولن يأتي بعده.

**4)-أسلوبه:**

 لسجع الكهان أسلوب خاص يقوم على مجموعة من المبادئ،كانوا ينتهجونها للتأثير في السامع وحمله على التصديق،من ذلك اعتمادهم على:

- المعاني المقتضبة التي تتكون غالبا من مبتدأ وخبر،أو فعل وفاعل،أو سؤال قطعي،أو وصف لبعض الأحداث،أو التغييب المعنوي للظاهر،وتعميق المعنى الباطن في تلافيف الكلام.

- القوالب المتقابلة والمتناظرة التي تعتمد على شدة الوقع والجرس،والنهايات الحادة التي تغلق المعنى بقسوة ليبدأ بعدها معنى جديد آخر يناظر الأول أو يعاكسه،وهذا ما يفتح المعنى على احتمالات مختلفة.

- التركيز على الأفكار،وهذا ما يعطي الكلام بعدا معرفيا أو لغويا،يرفعه من مرتبة الكلام العادي المباشر إلى نوع من الإنشاد الديني،متوسلا لذلك تضمين كل المخزون الروحي والمعرفي والثقافي والاجتماعي والسياسي،الذي يميز الكاهن عن غيره ولا سيما الشاعر(8).

 وعلى هذا الأساس نقول، إن هذا اللون النثري من ألوان الأدب العربي شهد تطورا كبيرا في العصر الجاهلي؛لعناية القبائل به ورؤساء العشائر،فالكهان يمثلون بالنسبة لهم رموزا روحية ومدافعين عنهم،غير أنه لما جاء الإسلام تراجعت مكانة السجع والكهنة ،ووقف الدين وقفةعدائية ضد محترفي الكهانة وأسلوبهم السحري القائم على الغموض والإبهام•

**الهوامش:**

(1)- أحمد عبد المجيد محمد خليفة: «السجع في القرآن الكريم»،الكلية الجامعية بمكة المكرمة،جامعة أم القرى،في

www.google.fr

(2)-ابن منظور:لسان العرب،مادة (سجع)،دار صادر،بيروت،ص400.

(3)- هدى عطية عبد الغفار: «السجع القرآني دراسة أسلوبية»،ر.ماجستير،جامعة عين شمس،كلية الآداب،قسم اللغة العربية وآدابها،مصر،2001،ص26.

(4)- شوقي ضيف:تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي،ص420.

(5)- ابن كثير(عماد الدين أبو الفداء):البداية والنهاية،ج2،مكتبة المعارف،بيروت،1966،ص.ص200-201.

(6)- شوقي ضيف:تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي، ص420.

(7)- ينظر: أحمد عبد المجيد محمد خليفة: «السجع في القرآن الكريم»،مرجع سابق.

(٭)-الطبري(أبو جعفر محمد بن جرير):تاريخ الملوك والرسل،تح:محمد أبو الفضل إبراهيم،دار المعارف، القاهرة،1987،ص276 .

(8)- ينظر: كريم عبيد: «القرآن وسجع الكهان»،م.الغاوون،ع35،كانون الثاني2011،في

 http :||ar-ar.facebook.com

 **الأمثال في الأدب الجاهلي:**

 أبدع العرب في ضرب الأمثال في مختلف المواقف والمناسبات،إذ لا يكاد يخلو موقف أو حادث،أو خطبة أو قصيدة شعرية من مثل،يعكس عاداتها وتقاليدها ونظرتها إلى المجتمع،بل إنها تجري على ألسنة الخواص والعوام،وذلك لخفتها وسهولتها على النطق وسرعة حفظها،فهي تتوفر على مزايا وخصائص جعلتها لغة الجميع،ومع ذلك فهي تشتمل على خلاصة خبرة الشعوب،وذلك بأسلوب بلاغي فيه سلاسة وخفة وسهولة وإيجاز،غير أنه يختلف عن لغة العامة.

 وقد حفظت لنا كتب الأدب والتاريخ الكثير من أمثال العرب،التي كانت بالفعل مرآة صادقة لحياتهم وتجاربهم الخاصة.

 **1)- تعريف المثل:**

 **أ- لغة:**يطلق المثل في اللغة على الشيء الذي يُضرب لشيء مثلا،فيجعله مثله،يقال تَمَثَّلَ فلان:ضرب مَثَلاً،وتَمَثَّل بالشيء،ضرب مَثَلاً، والمِثْلُ،كالمَثَلِ،والجمع أَمْثَالٌ،قال تعالى: «وَلِلَّهِ اَلْمَثَلُ اَلْأَعْلَى»( النحل/الآية60)،يريد أن الله سبحانه يأمر عباده بتوحيده،ونفي كل إله سواه،فالمثل الأعلى (هنا) التوحيد الخالص والصفات الإلهية العليا التي لا ينازعه فيها أحد،والمِثْلُ بكسر الميم الشَّبَهُ،يقال مِثْل ومَثِيْلٌ وشَبِيْهٌ بمعنى واحد،كما ورد في قوله تعالى: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ هُوَّ السَّمِيْعُ اَلْبَصِيْرُ »(الشورى/الآية11)،أراد ليس كذاته شيء،فالنفي المطلق،يؤكد على حقيقة وحدانيته وبتنزهه عن النظير والمثيل -جل وعلا-(1) .

 وقيل:إنما سمي مثلا؛لأنه ماثل لخاطر الإنسان أبدا،يتأسى به،ويعظ به،ويأمر به،ويزجر به،ومن ثم فهو أبلغ من الحكمة؛لأن الناس لا يجتمعون على ناقص أو مقصر في الجودة،أو غير مبالغ في بلوغ المدى(2) .

 **ب-اصطلاحا:**

المثل اصطلاحا قسم من الحكم،يرد في واقعه لمناسبة اقتضت وروده فيها،ثم يتداوله الناس في غير واحد من الوقائع التي تشابهها،دون أدنى تغيير لما فيه من وجازة وغرابة ودقة في التصوير،فالكلمة الحكيمة على قسمين:سائر منتشر بين الناس ودارج على الألسن فهو المثل،وإلا فهي كلمة حكيمة لها قيمتها الخاصة،وإن لم تكن سائرة(3) .

 وقد توقف "المرزوقي"(-421ھ/1030م) عند طبيعة المثل وحقيقته وسيرورته ،فاعتبر أن المثل جملة من القول مقتضبة من أصلها أو مرسلة بذاتها،فتتسم بالقبول وتشتهر بالتداول.فتنقل عما وردت فيه إلى كل ما يصح قصده بها،من غير تغيير يلحقها في لفظها،وعما يوجبه الظاهر إلى أشباهه من المعاني،فلذلك تضرب وإن جهلت أسبابها التي خرجت عليها(4) .

 واتسع "ابن عبد ربه"( -328ھ /940م) بتعريفه وتعداد صفاته،فقال عن الأمثال: «هي وشي الكلام وجوهر اللفظ وحلي المعاني والتي تخيرتها العرب وقدمتها العجم ونطق بها في كل زمان وعلى كل لسان،فهي أبقى من الشعر وأشرف من الخطابة،لم يسر شيء مسيرها،ولا عم عمومها حتى قيل أسير من مثل»(5) .

 كما يعني باختصار«القول السائر أو المأثور،فرضي أو خرافي،يتميز بخصائص ومقومات يرسله لذاته،وينقل ما ورد فيه إلى ما يحاكيه في معنى أو مبنى...وهو يدل في صميمه على ما يمثل به الشيء دون تغيير في المعنى،مع مخالفة لفظه للفظ المضروب الذي قام مقامه على وجه تشبيه حاله الذي حكي فيه بالحال الذي قيل لأجله»(6) .

 إذن،فالأمثال« نوع من أنواع الأدب يمتاز بإيجاز اللفظ وحسن المعنى ولطف التشبيه وجودة الكناية،ولا تكاد تخلو منها أمة من الأمم.ومزية الأمثال أنها تنبع من كل طبقات الشعب،وليست في ذلك كالشعر والنثر الفني،فإنهما لا ينبعان إلا من الطبقة الأرستقراطية »(7) .

 **2)-نشأة المثل وسيرورته:**

 ذهب الكثيرون إلى أن المثل يمر بعدة مراحل،إذ يكون فرديا ثم يصبح بالتداول جماعيا،فقد حفظت لنا كتب الأدب والتاريخ وقائع ومناسبات عديدة أكدت فيها أن قائل المثل فرد قالها في مناسبة أو واقعة معينة،ثم سرت بالتدريج.

 وقد أكثر الناس منذ القديم من ضرب الأمثال،وبلغ العرب في ذلك شأوا بعيد المنال،حتى اتخذوا منه زينة وزخرف القول،وجمعوا منه الكثير وأولوه الترتيب والتفسير،فتحدد في ذلك التأليف،وتنوعت الروايات فيها،وكثرت الاستشهادات بها،وهذا لبلاغتها وفصاحتها ووفرتها،وتنوعت بين القديم والمولد والحديث(8) .

 وأقدم كتب ألفت في الأمثال:

"الأمثال ومعاني الشعر" للمفضل الضبي(168 ھ/784م)،"الأمثال" لابن السكيت(244 ھ /858م)،و"البيان والتبيين" للجاحظ،و"الأمثال وعجائب القرآن" لابن الأنباري(328 ھ /940م)، "أمثال القرآن" لنفطويه(332 ھ /935م)،"مجمع الأمثال" للميداني(518 ھ /1124م)،ا"المستقصي من أمثال العرب" للزمخشري(467 ھ /1075م)،...إلخ.

ويمكن التأريخ للمثل بمعرفة قائله،ومن تمثل بالمثل بعد ذلك،يقول "طلال حرب" في ذلك: «...والذي نراه أن الأمثال متنوعة،منها ما هو من تأليف رجل واحد يتوافق قوله مع تفكير الناس،ويعبر عن شيء ما لديهم فيتداولوه؛وقد يحملونه معاني إضافية من غير أن يعدلوا لفظه.ومن الأمثال ما يطلقه مؤلف معين،فلا يلبث الناس أن يغيروا فيه ويعدلوا وفق بعض المعطيات الخاصة»(9) .

 ولذلك يراعى في المثل الجوانب الثلاثة الآتية:

- مورد المثل:يشمل القائل والمناسبة التي قيل فيها المثل وقصته،والأشخاص والأشياء المشهورة بصفات مقبولة أو مرذولة.

- مضرب المثل:أي الحالة المشابهة لقصته الأولى،أو الشخص أو الشيء المشابه للشخص أو الشيء الوارد في المثل.

- دلالة المثل على البيئة:أي ما يمكن استشفافه من المثل من دلالات بيئية أو اجتماعية أو ثقافية أو غير ذلك(10) .

 3**)-أنواع المثل:**

في الاصطلاح عرف العرب ثلاثة أنواع من الأمثال هي:

 **أ-المثل السائر:**هو المراد عند التعميم والإطلاق.و«ينبثق عن تجربة شعبية بلا تكلف أو تصنع بحيث يمليه الواقع في الحياة فيستعمله كل من يمر بنفس التجربة تعبيرا عن موقفه في مناسبة معينة،أو إبرازا لفكرة أو شعور يتملكانه،ولا يقتصر ضرب المثل السائر على تجربة شعبية،بل قد يأتي به أهل العلم والمعرفة،كقول الرسولۖ:«إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرَا»،أو كقول أحدهم:(رُبَّ أَخٍ لَكَ لَمْ تَلِدْهُ أُمُّكَ).أو أن يكون شعبيا لا تعلم فيه،،ولا تكلف بقواعد النحو،وإما كتابي صادر عن ذوي الثقافة العالمية كالشعراء والخطباء،كقولهم:كالمُسْتَجِيْرِ مِنَ الرَّمْضَاءِ بِالنَّارِ» (11) .

 ومن هاته النوعية أيضا بعض القصص الحقيقية التي أدت في النهاية إلى ضرب أمثلة كقولهم:

- وَافَقَ شَنٌّ طَبَقَة:شن رجل من العرب خرج ليبحث عن امرأة يتزوجها،فرافقه رجل في الطريق إلى القرية التي يقصدها،وام يكن يعرفه من قبل.قال شن:أتحملني أو أحملك؟فسكت شن حتى قابلتهما جنازة،فقال شن:أصاحب هذا النعش حي أم ميت؟فقال الرجل ما رأيت أجهل منك،ترى جنازة وتسأل عن صاحبها أميت أم حي،فسكت شن،ثم أراد مفارقته،فأبى الرجل وأخذه إلى منزله وكانت له بنت تسمى طبقة.فسألت أباها عن الصيف فأخبرها بما حدث منه،فقالت يا أبت ما هذا بجاهل؛إنه أراد بقوله أتحملني أم أحملك:أتحدثني أم أحدثك.وأما قوله في الجنازة فإنه أراد:هل ترك عقبا يحيا به ذكره؟فخرج الرجل وجلس مع شن وفسر له كلامه،فقال شن:ما هذا بكلامك،فصارحه بأنه قول ابنته طبقة،فتزوجها شن،ويضرب للمتوافقين(12) .

- لَا تُؤَخِّرْ عَمَلَ اليَوْمِ إِلَى الغَدِ:قائل هذا المثل هو"أبو مسلم الخراساني" أحد كبار قادة الدولة العباسية،وقد كتبه لعامل مدينة "بلخ" كتوقيع.ويضرب هذا المثل في الحث على المبادرة على آداء الواجبات في حينها؛لكي لا تفوت الفرص السانحة،أو تتراكم الأعمال فتثقل،أو يعجز الإنسان عن آدائها(13) .

- الطَّمَعُ الكَاذِبُ يَدُقُّ الرَّقَبَةَ:قائل هذا المثل هو "خالد بن صفوان التميمي"(- 134ھ ) وكان من المقربين إلى "أبي العباس السفاح"،وكان له أخبار وأحاديث في مجلس هذا الخليفة.

كان "خالد بن صفوان " بخيلا،فبنى دكانا مرتفعا لا يسع غيره،ولا يصل إليه الراجل،فكان إذا تغذى قعد عليه يأكل وحيدا لبخله،فجاء أعرابي على جمل،فساوى الدكان،ومد يده إلى الطعام،وبينما هو يأكل هبت ريح،فنفر البعير وألقى الأعرابي،فاندقّت عنقه،فقال "خالد":(الطمع الكاذب يدق الرقبة) فذهب قوله مثلا.

يضرب هذا المثل لمن يطمع في أشياء الناس وهو في غنى عنها وليس مضطرا إليها،فالأعرابي لم يكن جائعا،ومع ذلك تطفل على مائدة "خالد"،وهذا هو الطمع الكاذب(14) .

 فمثل هاته الأمثال نتجت عن تجارب معينة،وبات الشعب يرددها عند مروره بتجارب مشابهة،مقتطعا إياها من سياقها،ليستخدمها في التعبير عن خلجات نفسه.

  **ب-المثل القياسي:**هو سرد وصفي أو قصصي أو تصويري لتوضيح فكرة،عن طريق تشبيه شيء بشيء،لتقريب المعقول من المحسوس،لغرض التأديب،أو التهذيب أو الإيضاح،أو غير ذلك.ويمتاز هذا النوع عن النوع الأول بالإطناب،وعمق الفكرة وجمال التصوير (15) .وهو مبثوث في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وغيرهما.

 ويمكن أن نسوق هاته الأمثلة من القرآن الكريم:

-«إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحِيْ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوْضَةً فَمَا فَوْقَهَا »(16) .

-«وَمَثَلُ الذِيْنَ كَفَرُوْا كَمَثَلْ الذِيْ يَنْعَقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُوْنَ»(17) .

-«ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيْهَا رِزْقُهَا رَغَدَا فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجُوْعِ والخَوْفِ بِمَا كَانُوْا يَصْنَعُوْنَ»(18) .

 أو كمثل هاته المجموعة من الأمثال التي توضح ذلك:

- تَزَاوَرُوا ولَا تَجَاوَرُوا(19) .

- الرِّفْقُ يُمْنٌ والخَرْقُ شُؤْومٌ(20) .

- الخَيْرُ عَادَةٌ(21) .

- خَيْرُ المَالِ عَيْنٌ سَاهِرَةٌ لِعَيْنٍ نَائِمَةٍ(22) .

- شَرُّ إِخْوَانِكَ مَنْ لاَ تُعَاتِبْ(23) .

- رُبَّ سَاعٍ لِقَاعِدٍ(24) .

 **جـ- المثل الخرافي:**هو في الغالب قصة رمزية بسيطة،تعزى فيها الأفعال إلى الحيوانات،كقصص "كليلة ودمنة" التي وضعها "عبد الله بن المقفع"(142 ھ /759م)،أو كقصص الشاعر الفرنسي "لافونتين"،بحيث تستبدل الشخصيات الآدمية بمخلوقات أخرى،كالطير والبهائم وغيرها.ويكون الهدف دائما تربويا تثقيفيا تعليميا.ومن القصص الخرافية التي وردت على ألسنة الحيوانات،وأدت في النهاية إلى ضرب أمثلة نذكر:

- قصة الغراب والديك:في الكثير من الروايات من أحاديث العرب أن الديك كان نديما للغراب،وأنهما شربا الخمر عند خمار ولم يعطياه شيئا،وذهب الغراب ليأتيه بالثمن حين شرب،ورهن الديك فخاس به،فبقي محبوسا (25) .

- قصة احتكام الأرنب والثعلب إلى الضب:من هاته القصة برر العرب الكثير من الأمثال الشائعة،وهي على هذا النحو،«زعمت العرب على ألسن البهائم،قالوا إن الأرنب التقط ثمرة فاختلسها الثعلب فأكلها،فانطلقا يختصمان إلى الضب.

فقال الأرنب:يا أبا الحسل(كنية الضب)

فقال الضب:سميعا دعوت.

فقال:أتيناك لنختصم إليك.

قال:عادلا حكمتما.

قالت:فاخرج إلينا.

قال:في بيته يؤتى الحكم.

قالت:إني وجدت ثمرة.

قال:حلوة فكليها.

قالت:فاختلسها الثعلب.

قال:لنفسه بغى الخير.

قالت:فلطمته.

قال:بحقك أخذت.

قالت:فلطمني.

قال:حر انتصف(أي اقتص لنفسه).

قالت:فاقض بيننا.

قال:قد قضيت.

فذهبت أقواله كلها أمثالا» (26) .

 4**)-أسلوب المثل وخصائصه:**

 من الأقوال التي تلخص وصف أسلوب الأمثال ما جاء في قول "إبراهيم النظام"(- 231ھ )،حيث قال:

«يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام:إيجاز اللفظ ،وإصابة المعنى،وحسن التشبيه،وجودة الكناية،فهو نهاية البلاغة» (27) .

 ويلاحظ أن كل من درس المثل توقف عند ناحية معينة،ولعل من أهم النواحي التي توقفوا عندها:

الشيوع والانتشار- الخبرة- البلاغة- الإيجاز- الإيقاع(28) .

 وبهذا ،فهو يمتلك إضافة إلى ذلك خصائص معينة، بحيث:

- يستخدم المثل الألفاظ المعبرة عن واقع الحياة المعاشة،بحيث تتم المشاكلة بين اللفظ والمعنى،والمشاكلة تمنحها المعاني الخليقة بها والموحية بطريقة المنشئ أو القائل في تعبيره عن تجربته أو معاناته أو معرفته،ومن ثم تتعدد أشكال التعبير وتتنوع ضروب التصوير أو التفكير،وتتباين صيغ التراكيب.

- تتنوع تراكيب المثل بين الطول والقصر،والإنشاء والخبر،والإرسال والتوقيع والتسلسل والانقطاع،والإيجاز والتكرار،وبربط النتيجة بالمقدمة(29) .

 وكان العرب يميزون في أمثالهم بين عدة أنواع،أهمها الأمثال الحكيمة كالتي نجدها في قولهم:الجار قبل الدار،الحرب خدعة،العتاب قبل العقاب،ونحوها مما تتناقله الألسن وترويه الأمم بعضها عن بعض،وأقدم مجموع لها "أمثال سليمان" وأكثر الأمم أخذت عنها،وهي عند العرب مقتبسة من التوراة،كذلك أمثال الهند والفرس والروم(30) .

 وكان العرب ينسبون الكثير من الأمثال لأصحابها ومبدعيها،فمن حكماء العرب عدد كبير اشتهر بابتكاره الأمثال،يقول "الجاحظ":«...ومن الخطباء البلغاء والحكام الرؤساء أكثم بن صيفي وربيعة بن حذار وهرم بن قطيعة وعامر بن الضرب ولبيد بن ربيعة» (31) ،وأحكمهم "أكثم بن صيفي" وأمثلته تجري على هذا النسق: «رُبَّ عَجَلَةٍ تَهَبْ رَيْثًا.ادْرَعُوا الَّليْلَ فَإْنَّ اللَّيْلَ أَخْفَى لِلْوَيْلِ.المَرْءُ يَعْجَزُ لاَ مَحَالَةَ.لاَ جَمَاعَة َلِمَنِ اخْتَلَفَ.لِكُلِّ أمْرِيء سُلطَانً عَلَى أَخِيْهِ حَتَّى يَأْخُذَ السِّلاحَ،فَإنَّهُ كفَى باِلمَشْرَفيَّةِ وَاعِظا.أسْرَعُ العُقُوبَاتِ عُقُوبُةُ البَغْي» (32) .

 وليست كل الأمثال مقصورة على النثر،وإنما كان لها حظها من النظم،كقولهم(أحق الخيل بالركض المعار)،قاله "عبيد بن الأبرص"(-25ق. ھ /600م) الشاعر الجاهلي المشهور عندما هم "المنذر بن امرئ القيس" بالفتك به،وهو عجز من بيت تمامه:وجدنا في كتاب بني تميم ☼ أحق الخيل بالركض المعار.

والبيت للشاعر "بشر بن أبي خازم"(-22ق. ھ /598م) ونسب لـ"الطرماح بن حكيم"(125 ھ /743م)(33)

 كما أن بعض الأمثال تمتاز بإيقاع واضح من السجع،لعله مقصود لتيسير انتشاره وسهولة حفظه وترداده،وبأسلوب موجز وبسيط وبليغ كقولهم: العود أحمد،السر أمانة،جزاء سنمار،عشب ولا بعير...إلخ.

 أما عن لغة الأمثال فهي تمتاز بجودة الكناية،وبحسن التشبيه والمبالغة، باستخدام صيغ معينة(طغيان أفعال التفضيل) مثل قولهم:أسير من مثل،أعز من كليب وائل،أكذب من مسيلمة،أسخى من حاتم،أبلغ من سحبان بن وائل،أحلم من الأحنف بن قيس...إلخ.

 و لكن أمثال العرب لم تأت كلها على هاته الدرجة من الرقي والانضباط الأسلوبي،بل إن كثيرا من الأمثال الجاهلية تخلو من التفنن التصويري،وهذا بطبيعة الأمثال فإنها ترد على الألسنة عفوا وتأتي على ألسنة العامة لا محترفي الأدب،فلم يكن من الغريب أن يخرج بعضها عن القواعد الصرفية والنحوية دون أن يعيبها ذلك مثل (أَعْطِ القَوْسَ بَارِيْهَا) بتسكين الياء في باريها والأصل فتحها،وأيضا (أَجْنَاؤُهَا أَبْنَاؤُهَا) جمع جان وبان،والقياس الصرفي جناتها وبناتها؛لأن فاعلا لا يجمع على أفعال،وهذا يثبت أن المثل لا يتغير،بل يجري كما جاء على الألسنة وإن خالف قواعد النحو وقواعد التصريف(34) .

 والأمثال في الأدب الجاهلي يصعب تمييزها عن الإسلامي؛لاختلاطهما ببعض عند الرواة والمؤلفين، ولكن ما يشير إليه من حادث أو قصة أو خبر مما يتصل بالجاهلية، يساعد على معرفة الجاهلي وتمييزه من الإسلامي مثل:مَا يَوْمُ حَلِيْمَةَ بِسِرٍّ(وحليمة بنت ملك غسان ويضرب هذا المثل للأمر المشهور الذي لا يكاد يجهل)،وقد يدل على جاهلية المثل أن يكون مخالفا لتعاليم الإسلام ومبادئه مثل: اليَوْمَ خَمْرٌ وَغَدًا أَمْرٌ(35) ،وقائله "امريء القيس" في قصة ثأره لأبيه.

 هذه نظرة عن حالة هذا الفن النثري،وما امتاز به من خصائص وسمات فنية،وما احتواه من دقة وصواب رأي،جعل بعضا من تلك الأمثال متداولا حتى عصرنا الحالي•

 **الهوامش:**

(1)- ابن منظور:لسان العرب،مادة(مثل) ،م11،ص.ص610-611.

(2)- رابح العوبي:المثل واللغز العاميان،عنابة،الجزائر،ط1،2005 ،ص3.

(3)- جعفر سبحاني:القرآن الكريم وعلومه،مؤسسة إمام صادق،(د.ط)،(د.ت)،ص5.

(4)-طلال حرب:أولية النص(نظرات في النقد والقصة والأسطورة والأدب الشعبي)،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،لبنان،ط1،1999،ص145.

(5)-ابن عبد ربه(أحمد بن محمد):العقد الفريد،دار الكتاب العربي،بيروت،1982،ص63.

(6)- رابح العوبي:المثل واللغز العاميان،ص3.

(7)-أحمد أمين:قاموس العادات والتقاليد،مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر،مصر،ط1،ص61.

(8)- ينظر:ناصر حجيلان:الشخصية في قصص الأمثال العربية،المركز الثقافي العربي،بيروت،لبنان،ط1،2009،ص117.

(9)- -طلال حرب:أولية النص(نظرات في النقد والقصة والأسطورة والأدب الشعبي)،ص150.

(10)- حامد صادق قبيتي:الأدب العباسي،دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع،عمان،الأردن،(د.ط)،2008،ص192.

 www.elezem.com(11)- ينظر:

(12)-محمد عبد المنعم خفاجي:الأدب الجاهلي،دار الكتاب،ص145.

(13)-ينظر: حامد صادق قنيبي:الأدب العباسي،ص194.

(14)- المرجع نفسه،ص.ص193-194.

(15)-رودلف زلهايم:الأمثال العربية القديمة،تر:رمضان عبد التواب،مؤسسة الرسالة،بيروت،1984،ص7.

(16)-البقرة/الآية26.

(17)-البقرة/الآية172.

(18)-النحل/الآية112.

(19)- ابن عبد ربه:العقد الفريد،ص103.

(20)-المصدر نفسه،ص113

(21)- المصدر نفسه،ص275.

(22)- المصدر نفسه،ص434.

(23)- المصدر نفسه،ص463.

(24)- العبوري(محمد بن علي):تمثال الأمثال،تح:أسعد ذبيان،دار المسيرة،بيروت،لبنان،ط1،1982،،ص493.

(25)- الجاحظ:الحيوان،تح:عبد السلام هارون،مطبعة البابي الحلبي،القاهرة،ص.ص125-126.

(26)- الميداني(أحمد بن محمد):مجمع الأمثال،ج2،مطبعة السنة المحمدية،القاهرة،ص72.

(27)- محمد عبد المنعم خفاجي:الأدب الجاهلي،دار الكتاب،بيروت،ص145.

(28)-طلال حرب:أولية النص،ص147.

(29)- رابح العوبي:المثل واللغز العاميان،ص18.

(30)- جورجي زيدان:تاريخ آداب اللغة العربية،موفم للنشر،طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية،الجزائر،1993،ص84.

(31)- الجاحظ:البيان والتبيين،ص365.

(32)- شوقي ضيف:تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي،ص407.

(33)- ينظر: طلال حرب:أولية النص،ص150.

(34)- زينب فواز:من تيارات الأدب الجاهلي،جامعة أسيوط،القاهرة،ص196.

(35)- محمد عبد المنعم خفاجي:الأدب الجاهلي،ص146.

 **فن الحكمة:**

  **1)- مفهوم الحكمة:**

هي لون من ألوان النثر الفني،وهي خلاصة نظر معمق إلى الحياة وما يضطرب فيها من ظواهر،تصدر عن ذوي التجارب الخصبة والعقول الراجحة والأفكار النيرة،وقائلها حكيم ينظر إلى الأمور نظرة شاملة،ويحللها تحليلا دقيقا،ثم يصدر في شأنها حكما يظل سائرا مذكورا،يعلق بالأذهان والقلوب،فيجري على الألسن عبر العصور والأزمان؛لأن الناس يجدون في هذه الحكم هداية وإرشادا وتوجيها إلى ما يعينهم على الفلاح في حياتهم...إنها أقوال من جوامع الكلم (1) .

 وكانت الحكمة في الجاهلية تصدر عن اختبار شخصي،وتستخلص من التجارب الحياتية الكثيرة،وليس فيها أي أثر للتأمل العميق.وأغلب حكم الجاهليين كانت بسيطة فكل معانيها لا تتعدى الفطرة والسليقة،وتدور حول تقلبات الأيام والزمان وظروف الدهر(2) .

وهي إضافة إلى ذلك،« قول بليغ موجز صائب يصدر عن عقل وتجربة وخبرة بالحياة،ويتضمن حكما مسلما به في أمر بخير،أو نهيا عن شر»(3) .

 وقد وردت لفظة (الحكمة) في القرآن الكريم عشرين مرة في تسع عشرة آية،وفي اثني عشر سورة،وذلك بعدة معان.وقد اختلف المفسرون في تفسير الآيات الواردة بلفظ (الحكمة)،فـ"الرازي" على سبيل المثال يرى أن تفسير الحكمة في القرآن الكريم يتم على أربعة أوجه:

1- الحكمة بمعنى مواعظ القرآن،قال الله تعالى: «وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الكِتَابِ والحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ »(سورة البقرة/الآية231).

2- الحكمة بمعنى الفهم والعلم،ومنه قوله تعالى: «وَلقَد ْآتَينَا لُقْمَانَ الحِكْمَةَ»(سورة لقمان/الآية12).

3- الحكمة بمعنى النبوة،ففي سورة "النساء":«فَقَدْ آتَيْنَا أَهْلَ إبْرَاهِيْمَ الكِتَابَ والحِكْمَةَ» (الآية54).

4- القرآن بما فيه من عجائب الأسرار،كقوله تعالى: «ادْعُ إِلَى سَبِيْلِ رَبكَ بِالحِكْمَةِ» (سورة النحل/الآية125) (4) .

 **2)-أركان الحكمة:**

 أ- **التجرد والإخلاص والتقوى:**هذا هو الأساس لكل عمل والمنطلق لكل هدف وغاية،فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول:«إِنَّ اللهَ لاَ يَنْظُرُ إلَى أَجْسَامِكُمْ ولَا إلَى صُوَّرِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلىَ قُلُوبِكُمْ».

**ب- التوفيق والإلهام:**إن الحكمة مطلب عزيز وغاية سامية ورتبة رفيعة،ينال صاحبها سمة من سمات الأنبياء والرسل،ولذلك فهي ليست متاحة لكل فرد،بل هي مع بذل الأسباب وتوافر الأركان فضل من الله ونعمة،يقول تعالى: «يُؤْتِيْ الحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ومَنْ يُؤْتِ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوْتِيَ خَيْرًا كَثِيْرًا ومَا يَذَكَّرُ إِلَّا أُوْلُوا اَلْأَلبَابِ» (البقرة/الآية269).

**جـ- العلم الشرعي:**العلم من أهم قواعد الحكمة ودعائمها،فكما أن الجهل من موانعها،فالعلم سبب من أسبابها وركن من أركانها،ولهذا قال تعالى: «قُلْ هَلْ يَسْتَوِيْ الذيْنَ يَعْلَمُوْنَ وَالذِيْنَ لاَ يَعْلَمُوْنَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوْا اَلْأَلْبَابِ»(الزمر/الآية9)،لا يستوون في أشياء كثيرة ومنها إدراك الحكمة.كما قرن الله سبحانه وتعالى بين (الحكم) و(العدل) في عدة آيات،يقول الله تعالى عن "لوط" عليه السلام:«وَلُوطًا أَتَينَاهُ حُكْمًا وعِلْمًا» (الأنبياء/الآية74)،ويقول عن "موسى" عليه السلام:«وَلَما بَلَغَ أشُدﱠهُ وَاسْتَوَى أَتَيْنَاهُ حُكْمًا وعِلْمًا» (القصص/الآية14).هذه الآيات أقوى دلالة على اقتران العلم بالحكمة.

**د- التجربة والخبرة:**وهما من أهم أسباب التوفيق للحكمة،فقد ورد (لَا حَكِيْمَ إْلَّا ذُو تَجْرِبَةٍ)...لذلك فالتجربة عامل مهم في حصول الحكمة وتحققها.

**ھ- رجاحة العقل:**إن العقل مكان الحكمة وبيتها وبين العقل والحكمة اشتراك لفظي ومعنوي،وقد يطلق العاقل على الحكيم والحكيم على العاقل،والحكمة أعم من العقل وأشمل.

**و- العدل:**أمر الله بالعدل في عدة مواضع،ولا يمكن أن تجتمع الحكمة مع الظلم والجور.وقد جعل الله العدل أساس الحكم ،فالعدل من لوازم الحكمة وركن من أركانها(5) .

 **3)-خصائص الحكم وسماتها:**

- أغلبها مستمد من تجارب وخبرات الحياة،فالحكمة التي قالها "المنتصر بالله" هي خلاصة تجربة مريرة،خاضها وهو يريد الاستئثار بالخلافة دون أخويه "المعتز" و"المؤيد"،فاضطر لقتل أبيه "المتوكل"،وكان والده يشعر أنه يدبر مكيدة له.فلما تمكن "المنتصر" من الحكم ندم على تلك الجريمة فقال:(لَذَّةُ العَفْوِ أَطْيَبُ مِنْ لَذَّةِ التشَفَّيْ،وذَلِكَ أَنَّ لَذَّةَ العَفْوِ يَلْحَقُهَا حَمْدُ العَاقِبَةِ،ولَذَّةُ التَشَفَّي يَلْحَقُهَا ذَمُّ العَاقِبَةِ).

- تعتمد الحكم على الوجازة في التعبير،فبعضها يوشك أن يكون أمثالا.

- السهولة في الآداء والتعبير.

- حسن الصياغة بألفاظ مأنوسة تزينها الصور البانية والبديع أحيانا.

- التوجيه والإرشاد(6) .

 إضافة إلى ذلك كله،فهي «تكسب الكلام سحرا وحلاوة وتجعله مقبولا في الذوق قريبا إلى القلب مسلما به من العقل والشعور والوجدان.وإذا اشتهرت الحكمة صارت مثلا»(7) .

 **4)- نماذج من أشهر الحكم:**

كان العباسيون يقولون كلمات في الحكمة تعبر عن مواقفهم من الحياة والناس،وتشتمل على توجيه وإرشاد لحاشيتهم.وقد روي الكثير من الأقوال المأثورة لخلفائهم مثل "أبي العباس السفاح"،الذي صدرت عنه مجموعة من الحكم البليغة سنذكر بعضا منها:(مَا أَقْبَحَ بِنَا أَنْ تَكُوْنَ الدُّنْيَا لَنَا،وأَوْليَاؤُنَا خَالُوْنَ مِنْ أَثَرِهَا)،(إذَا كَانَ الحِلْمُ مَفسَدَةً كَانَ العَفْوُ مُعْجِزَةً).

 أما "المأمون" فقد أثرت عنه أقوال كثيرة من الحكمة،وكان يطيل فيها ويتوسع في موضوعاتها ويتعمق في بعضها،منها:(مَا أَقْبَحَ اللَّجَاجَةَ بِالسُّلْطَانِ،وأقْبَحَ مِنْ ذَلِكَ الضَّجَرُ مِنَ القُضَاةِ قَبْلَ التَفَهُّمِ،وأقبحَ مِنْهُ سَخَافَةُ الفُقَهَاءِ بالدِّينِ،وأَقْبحَ مِنْهُ البُخْلَ بِالأَغْنِيَّاءِ،والمُزَاحَ بِالشُّيُوْخِ،والكَسَلَ بِالشَّبَابِ،والجُبْنَ بالمُقَاتِلِ)،وقوله أيضا:(أَظْلَمُ النَّاسِ لِنَفْسِهِ مَنْ يقترِبُ إلى مَنْ يُبْعِدُهُ ويَتَوَاضَعَ لِمَنْ لا يُكْرِمُهُ،ويقبلَ مَدْحَ مَنْ لَا يَعْرِفُهُ)(8) .

 أما التي قالها الأدباء فقد كثرت كثرة بالغة،واتسعت مجالاتها،فمن الحكم التي قيلت في المجال الديني نذكر قول "ابن المقفع":(المَغْبُوْنُ مَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الآخِرَةِ)،وكذلك قول "ابن المعتز":(طَلاقُ الدُّنيَا مُهْرُ الجَنَّةِ)،وقول "الخوارزمي":(التَّقْوَى هِيَّ العُدَّةُ البَاقِيَّةُ والجَنَّةُ الوَاقِيَّةُ)،وقوله أيضا:(ظَاهِرُ التَّقْوَى شَرَفُ الدُّنْيَا،وبَاطِنُهَا شَرَفُ الآخِرَةِ).

 ومما جاء في الملك والسلطة،قول "ابن المقفع":(مِنَ الحَقَّ عَلَى السُّلْطَانِ رَفْعُ ذِيْ الفَضِيْلَةِ،وأنْ يَسُدَّ فَاقَتَهُ)،وقول "ابن المعتز":(مَن شَارَكَ السُّلْطَانَ فِي عِزِّ الدنْيَا،شَاركَهُ فِيْ ذُلِّ الآخِرَةِ)...إلخ(9) .

 **5)-الفرق بين المثل والحكمة:**

**-** الحكمة عامة في الأقوال والأفعال،أما المثل خاص بالأقوال.

- المقصود من المثل الاحتجاج،ومن الحكمة التنبيه والإعلام والوعظ(10) .

- الحكمة عصارة خبرة في الحياة وخلاصة فهم لأسرارها،يدبجها ذهن ذكي فطن،فهي جمل مرصوصة رصا محكما،تستخدم في المناسبات،فقولك:(مَقْتَلُ الرَّجُلِ بَيْنَ فَكَّيْهِ)،أو(مَصَارِعُ الرِّجَالِ تَحْتَ أَلْسِنتِهَا)...وأمثالها من جوامع الكلم هي حكم تنم عن فهم عميق لفلسفة الحياة والمجتمع(11) .

 -المثل قول يشبه الحكمة في إيجازه ورصه،ولكنه يختلف عنه بعمقه،فأنت تستخدمه كما روي بحروفه،فقولك في من ضيع فرصة وقد أمكنت،ثم حاول استردادها بعد فواتها(الصَّيْفَ ضَيَّعْتِ اللَّبَنَ).

- قد ينشأ المثل من حادث أو حديث أو تشبيه أو قصة أو حكمة أو شعر،أما الحكمة فتنشأ من إعمال الفكر والتعمق في درس الحياة والتفلسف في مفاهيمها واستكناه أسرارها(12) .

- قائل المثل مجهول في الغالب على عكس الحكمة.

-المثل يقوم على تشبيه حال الثاني الذي يضرب له المثل بحال الأول الذي يضرب به المثل،أما الحكمة فإنها لا تقوم على مثل هذا التشبيه إلا نادرا(13) .

 نستنتج مما سبق أن الحكم بالمثل تعد أقوالا مأثورة،تعبر عن بعض المواقف التي يصادفها الإنسان في حياته،فتعمل على توجيهه وإرشاده لما فيه خيره وصلاحه،وهي تعتمد على الإيجاز والاختصار مما جعلها تتقارب مع المثل،وتشترك معه في بعض الخصائص الفنية والأسلوبية،ومع ذلك تبقى الحكمة فنا قائما بذاته،نبيل المقصد والغاية والهدف•

**الهوامش:**

(1)- موسوعة شرطيوة www.Chartiwa(c)2004

(2)- زبير دراقي:المستقصي في الأدب الإسلامي،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر،1995،ص35.

(3)- المرجع نفسه.

(4)- ينظر: موسوعة شرطيوة www.Chartiwa(c)2004

(5)- Zabib 23.St/07/topic

(6)- محمود عبد الرحمن صالح:فنون النثر في العصر العباسي،دار جرير للنشر والتوزيع،عمان،الأردن،ط1،ص77.

(7)- ينظر:المرجع نفسه،ص.ص73-74.

(8)- محمد عبد المنعم خفاجي:الحياة الأدبية في العصر الجاهلي،دار الجيل،بيروت،ط1،1992،ص336.

(9)- ينظر:محمود عبد الرحمن صالح:فنون النثر في العصر العباسي،ص.ص75-76.

(10)- ينظر:المرجع نفسه،ص19.

(11)- ينظر:محمد الراوي:موسوعة الأمثال الشعبية في الوطن العربي،دار أسامة للنشر والتوزيع،عمان،الأردن،ط1،2000،،ص11.

(12)- ينظر:محمود عبد الرحمن صالح:فنون النثر في العصر العباسي،ص19.

(13)- ينظر:محمد الراوي:موسوعة الأمثال الشعبية في الوطن العربي،ص7.

 **فن التوقيعات في الأدب العربي:**

التوقيعات فن أدبي بليغ من فنون النثر العربي،ولون رائع من ألوان الكتابة النثرية،وهو عبارة موجزة بليغة،يكتبها الخليفة أو الوزير أو الأمير،ردا على ما يصل إليهم من رسائل تتضمن مختلف القضايا،وقد كانت توقيعاتهم آية قرآنية،أو حديثا نبويا شريفا،أومثلا،أو بيتا شعريا،أو إبداعا شخصيا ذاتيا؛لذا فهي بحاجة إلى سرعة البديهة والمهارة.

 **1)- معنى التوقيع في اللغة والاصطلاح:**

 **أ- في اللغة:** للتوقيع لغة عدة معان،فقد جاء في "لسان العرب" :«وَقَعَ ضَنُّهُ على الشيء قدره وتوهمه،و التَّوْقِيْعُ:الإصابة،وتنظر الأمر،وتوهم الشيء،ومن معانيه التأثير،يقال:جنب هذه الناقة مُوَقَّعٌ أي فيه تأثير خفيف من الحبال التي تشد عليها»(1) .

 ويقول "الزمخشري"(538 ھ /1144م): «الوَقْعُ مصدر- وَقَعَ الشيء يَقَعُ وُقُوْعًا وَوَقْعًا فهو وَاقِعٌ ووَقَعَ الطائرُ وَقْعًا ووُقٌوْعًا ،ومَوْقِعَه موضعه الذي يستعيده هكذا قال الأصمعي ووقعت الحديد أقعها وقعا إذا ضربتها بالمطرقة- والمَيْقَعَةُ المطرقة والحجر الذي يحد عليه-ووقع الرجل يوقع ويَيْقَعُ وَقْعًا إذا اشتكى لحم قدميه من الحفي وهو وقع.

و ق ع- وَقَعَ الشيءُ على الأرض وُقُوْعًا وأَوْقَعْتُهُ إِيْقَاعًا.ووَقَعَ الطائرُ على الشجرة وهذه مَيْقَعَةُ البازي:بكندرته.وتَوَقَّعْتُهُ ترقبت وقوعه.ووَقَعَ الربيع في الأرض.وانتجعوا مَوَاقِعَ الغيث ومساقطه وأصفى من ماء الوَقِيْعَةِ والِوقَاعُ وهي المناقع.

وتقول في فم الوِقَاعِ الوَقِيْعَةُ أعذب من ماء الوقيعة ...واسْتَوْقَعَ السيف:أني له أن يشحذ من المجاز:حافر موقع:وقعته الحجارة.ووقعت الدابة بكثرة الركوب:سحجت فتحاص عنها الشعر فنبي أبيض.قال:ولم يوقع بركب حجبه.وإنه لموقع الظهر ووَقَّعَ في كتابه تَوْقِيْعًا وهذه النعل لا تقع على رجلي.ووَقَعَ الأمر:حصل ووجد،ووَقَعَ في قلبي السفر.وفلان يسف ولا يَقَعْ إذا دنى من الأمر ثم لا يفعله...»(2) .

 أما "الفيروزأبادي"(817 ھ -1415م) ،فيكتب: «وَقَعَ يَقَعُ بفتحهما وقوعا:سقط،والقول عليهم وجب،والحق ثبت،والإبل بركت والدواب ربضت وربيع بالأرض حصل،ولا يقال سقط والطير إذا كانت على شجر أو أرض فهن وُقُوْعٌ ووَقْعٌ،وقد وَقَعَ الطائر وُقُوْعًا وأنه لحسن الوقعة بالكسر،والوَقْعُ وَقْعَة ُالضرب بالشيء والمكان المرتفع من الجبل »(3) .

 و«(وَقَعَ)- (يَقَعُ) وَقْعًا ووقُوْعًا:سقط و- الدواب:ربضت والإبل:بركت يقال:وَقَعَ الطير على أرض أو شجر والمطر بالأرض:حصل و- الحق:ثبت و- القول عليه:نفسه.وجب و- الكلام في نفسه:أثر فيها.و-فلان في فلان وَقِيْعَةً ووقُوْعًا:سبه واغتابه وعابه و- في العمل وُقُوْعًا:أخذه وأصاب الرفق فيه و- في الشرك:حصل فيه و- في أرض فلاة:صار فيها و- إلى كذا وقعا:أسرع وحسنا أو سيئا:ثبت لديه.و- عنده مَوْقِعا حسنا:نال منه حظا ومنزلة و- فلان البعير وقَعَا:كواه على أم رأسه»(4) .وبالتدريج اكتسب المعنى الاصطلاحي الذي نحن بصدده.

 **ب- في الاصطلاح:** التوقيع هو ما يعلقه الرئيس على كتاب وطلب برأي فيه،وتوقيع العقد أو الصك ونحوه:أن يكتب الكاتب اسمه في ذيله إمضاء له أو إقرارا به و- نوع من الخط(5) .

 وتوقيع الكاتب في الكتاب المكتوب، أن يجمل تضاعيف سطوره مقاصد الحاجة ويحذف الفضول.وهو مأخوذ من توقيع الدبر ظهر البعير،فكأن الموقع في الكتاب يؤثر في الأمر الذي كتب فيه ما يؤكده ويوجبه(6) .

 إن التوقيعات عبارات موجزة كان يكتبها الخليفة أو الوالي أو عماله في أسفل الشكاوي،أو المطالب والحاجات التي كانت ترفع إليهم بما يتضمن الرأي فيها،كأن يكتب إلى الوزير في غرض ما،فيكتب الرئيس عنه بما يفيد وجوب الفحص أو قضاء المأرب،وقد ظهرت التوقيعات في عهد الراشدين،وازدهرت في عهد بني أمية(7) .

 وهي ما «يعلقه الخليفة أو الأمير أو الوزير أو الرئيس على ما يقدم إليه من الكتب،في شكوى حال أو طلب نوال،ميزتها الجمع بين الإيجاز والجمال والقوة.وقد تكون آية،أو مثلا أو بيت شعر»(8) .

 وبالتالي،فالتوقيعات اصطلاحا تعني:تلك الأقوال البليغة الموجزة التي يكتبها المسؤول في الدولة،أو يأمر بكتابتها على ما يرفع إليه من قضايا وشكاوي،متضمنة ما ينبغي اتخاذه من إجراء نحو كل قضية أو مشكلة...ويكون التوقيع عادة في أسفل الرسالة،وفي بعض الأحيان خلفها أو في أعلاها،بمداد مغاير للون الكتاب أو الرسالة،جوابا على ما يكتبه رعايا الدولة،فيما يحزنهم من خطوب،وما يعروهم من مظالم .

ويكون الرد أمرا أو نهيا ترغيبا أو ترهيبا،بذلا أو منعا،وتسمى الظلامات والشكاوي هذه بالقصص على سبيل المجاز،من باب تسمية الشيء بما ينطوي عليه،إذ تحكي قصة الشاكي وظلامته (9) .

 2**)- نشأة فن التوقيعات:** سنتتبع نشأة هذا الفن عبر هذه المراحل:

 **أ- في عصر صدر الإسلام:**إذا تتبعنا نشأة هذا الفن سنجد بأن القضية فيها رأيان؛رأي يقر بعربية التوقيعات،ورأي آخر يرى أن العرب قد أخذوها عن غيرهم من الأمم وخاصة الفرس،يقول "د.شوقي ضيف":«إن التوقيعات عبارات بليغة موجزة تعود إلى ملوك الفرس ووزرائهم أن يوقعوا بها على ما يقدم إليهم من تظلمات في الرعية وشكواهم،وحاكاهم خلفاء بني العباس ووزرائهم في هذا الصنيع»(10) .

 ولعل الرأي الأول أرجح،ذلك أن التوقيعات عرفت أول ما عرفت في عهد الخلفاء الراشدين(رضوان الله عليهم)،و«ويروى عن الخليفة الراشد "أبو بكر الصديق" - رضي الله عنه – أنه أول من استعمل فن التوقيعات في تاريخ الأدب العربي،وفي التاريخ الإسلامي،غير أن التوقيعات التي أثرت عنه ،وصلت إلينا قليلة،ولا نستطيع أن نبني عليها حكما أدبيا »(11) .

 وفي رواية أخرى قيل،إن أول توقيع عرف في الأدب العربي كان لـ"عمر بن الخطاب" - رضي الله عنه -،حين كتب إليه "سعد بن أبي وقاص" يستأذنه في بناء،فوقع له "عمر بن الخطاب":(ابن ما يكنك الهواجر وأذى المطر)،أو:(ابن ما يستر من الشمس ويكن من المطر) (12) .

 ومن أشهر توقيعات الخلفاء نذكر هاته النماذج:

- وقع "عمربن الخطاب"(رضي الله عنه) أيضا في كتاب "عمرو بن العاص"(رضي الله عنه):(كن لرعيتك كما تحب أن يكون لك أميرك).

- وقع "عثمان بن عفان"(رضي الله عنه) في قصة رجل اشتكى الحاجة:(قد أمرنا لك بما يقيمك،وليس في مال الله فضل للمسرف).

- وقع "علي بن أبي طالب"(رضي الله عنه) إلى "طلحة بن عبيد الله" ،فقال:(في بيته يؤتى الحكم)،ووقع لـ"صعصعة ابن صوحان":(قيمة كل امريء ما يحسن).

- وكتب "أبو بكر الصديق"(رضي الله عنه) إلى "خالد بن الوليد"(ض)، وقد استأذنه في ملاقاة العدو:(أدن من الموت توهب لك الحياة).وبذلك امتازت توقيعات الخلفاء الراشدين ببلاغة الآداء ووجازة التعبير،وموافقتها للصواب(13) .

 **ب- في العصر الأموي:**بعد أن عرفت التوقيعات واستعملت في عصر صدر الإسلام،غدت فنا أدبيا مارسه كل خلفاء بني أمية،وبعض الأمراء الولاة والقواد،وقد وصلت إلينا نماذج كافية من هذا العصر سنورد بعضا منها:

- يروى عن "معاوية بن أبي سفيان" أنه وقع في كتاب "ربيعة بن سهل اليربوعي"،حين سأله أن يعينه في بناء داره بالبصرة باثني عشر ألف جذع من النخل،فكتب له:(أدارك في البصرة أم البصرة في دارك؟).

- ووقع "يزيد بن معاوية" إلى "عبيد الله بن زياد":(أنت أحد أعضاء ابن عمك فاحرص أن تكون كلها).

- ووقع "عبد الملك بن مروان" في كتاب أتاه من "الحجاج" يشكو إليه نفرا من "بني هاشم" ويغريه بهم:(جنبني دماء بني عبد المطلب فليس فيها شفاء من الطلب).

- ووقع "الوليد بن عبد الملك" إلى "عمر بن عبد العزيز" :(رأب الله بك الداء وأودم بك السقاء).

- ووقع "سليمان بن عبد الملك" ببيت شعري في كتاب بعث به إليه "قتيبة بن مسلم" يتهدده بالخلع:

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا ☼ أبشر بطول سلامة يا مربع.و"مربع" هو راوية "جرير"،وكان قد ضرب والد"الفرزدق"،وقيل إنه مات إثر ذلك،فتوعده "الفرزدق" بقتله،فطيبه "جرير" -أي مع مربع- وقال له أبشر فإنك لن تموت إلا حتف أنفك،أي تموت من غير قتل ولا ضرب بل على فراشك(14) .

 إذن،فقد أصبحت التوقيعات في العصر الأموي ضرورة،لشيوع الكتابة والخط،ولحاجة الأمراء والخلفاء إليها لتسيير الحكم،والنماذج السابقة توحي بازدهار هذا الفن.

 **جـ- في العصر العباسي:** توسع العرب في هذا الفن ،وأضحى عندهم مهنة لها أربابها الذين يتنافس كل واحد منهم في إظهار مهارته ومقدرته البيانية،كما أصبح له ديوان خاص،و«راح الخلفاء والوزراء يتألقون في توقيعاتهم وإظهار قدرتهم الأدبية،حيث يذكر ...عن "جعفر بن يحي البرمكي" صاحب الدواوين في عهد "الرشيد" أنه كان إذا وقع،نسخت توقيعاته وتدورست بلاغته»(15) .

 وذكرت في الكتب تواقيع كثيرة،لأشهر خلفاء بني العباس أو وزرائهم،سنورد بعضا منها:

 من ذلك توقيع "أبو العباس السفاح" في كتاب جماعة من بطانته يشكون احتباس أرزاقهم:(من صبر في الشدة شارك في النعمة).وتوقيع "المنصور" على شكوى لأهل الكوفة من عاملهم:(كما تكونوا يؤمر عليكم).وتوقيع "المهدي" لشاعر مدحه لتكسب:(أسرفت في مديحك فقصرنا في حبائك).وتوقيع "الرشيد" على رسالة لوالي خراسان:(داو جرحك لا يتسع) (16) .

 ومن أطرف ما يروى عن التوقيعات،أنه«كان "جعفر بن يحي البرمكي" يوقع في القصص بين يدي "الرشيد"،ويرمي بالقصة إلى صاحبها.فكانت توقيعاته يتنافس البلغاء في تحصيلها للوقوف على أساليب البلاغة وفنونها،حتى قيل إنه كانت تباع كل قصة بدينار»(17) .

 ومما روي عنه أيضا،«أنه جلس للمظالم فوقع على ألف قصة ونيف،ثم أخرجت فعرضت على العمال والقضاة والكتاب وكتاب الدواوين،فما وجد فيها شيء مكرر،ولا شيئا يخالف الحق.ومن توقيعاته... توقيعه على رقعة لمحبوس متظلم من حبسه:(العدل أوقعه والتوبة تطلقه) »(18) ،وكذلك توقيعه على كتاب لـ"علي ابن عيسى بن مامان" يتضمن اعتذارا عن أشياء بلغته:(حبب إلينا الوفاء الذي أبغضته،وبغض الغدر الذي أحببته،فما جزاء الأيام أن تحسن ظنك بها،وقد رأيت غدارتها،ووقعاتها عيانا وإخبارا (19) .

 لا شك أن هاته النماذج من التوقيعات، أعطتنا صورة واضحة عن مدى تطور هذا الفن الكتابي،ودقة استخدامه وتمرس الخلفاء ووزرائهم وأتباعهم به،بل إن إتقانهم له وتفننهم فيه وتباريهم ،يوحي بحاجة الدولة الماسة له.ولعل من دواعي ازدهار هذا الفن العوامل التالية:

- شيوع الكتابة منذ العصر الإسلامي وبالضبط عصر الخلفاء الراشدين.

- انتشار الفتوحات الإسلامية

- اتساع الرقعة الإسلامية.

- حاجة الولاة إلى الردود السريعة على مكاتباتهم أو رسائلهم.

- كثرة الأعباء الملقاة على كاهل الحكام،لتنوع إدارات وشؤون الدولة.

- مواقف بعض الحكام والولاة من الرعية،مما يدفع بهم إلى الكتابة المباشرة إلى من هو أعلى منهم،لعرض حاجاتهم ومطالبهم.

- ظهور العديد من الكتاب في بلاط الخلفاء والحكام،ومقدرتهم على التألق في حياتهم الأدبية(20) .

  **3)- أنواع التوقيعات:**قد يكون التوقيع أغلب أحد هذه الأنواع:

 **أ- آية قرآنية:**تناسبالموضوع الذي تضمنه الطلب،أو اشتملت عليه القضية.ويروى أن "السفاح" كتب في شكوى تظلم من أحد عماله فوقع:«وَمَا كُنْتَ مُتَّخِذًا المُضِلِّيْنَ عَضُدَا»(سورة الرعد/الآية51).وكتب صاحب أرمينية رسالة إلى "المهدي" يشكو سوء طاعة رعاياه،فوقع "المهدي" فيها قوله تعالى: «خُذِ العَفْوَ وَأَمرْ بِالَمَعْرُوْفِ واعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِيْنَ»(سورةالأعراف/الآية199).

 وكتب ملك الروم "نقفور" تهديدا لـ"هارون الرشيد" قائلا:(إني متوجه نحوك بكل صليب في مملكتي،وكل بطل في جندي)،فوقع "الرشيد" في كتابه قوله تعالى: «وَسَيعْلَمُ اَلْكَافِرُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ»(سورة الرعد/الآية42) (21) .

 **ب- بيت شعر:**نمثل لذلك بما كتب "ألفونس السادس" ملك قشتالة إلى "يوسف بن تاشفين" أمير المرابطين في الأندلس يتوعده ويتهدده.فوقع "يوسف" في كتابه ببيت لـ"أبي الطيب المتنبي":

ولا كتب إلا المشرفية والقنا ☼ ولا رسل إلا الخميس العرمرم (22) .

 **جـ- مثلا سائرا:** من ذلك ما وقع به "علي بن أبي طالب" (ض) إلى "طلحة بن عبيد الله":(في بيته يؤتى الحكم).أو مثل توقيع "هارون الرشيد" إلى صاحب خراسان:(داو جرحك لا يتسع) (23) .

 وما وقع به "يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان" إلى "مروان بن محمد" آخر خلفاء بني أمية،وقد أخبر "يزيد" أنه يتلكأ في مبايعته بالخلافة فوقع:(أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى،فإذا أتاك كتابي فاعتمد على أيهما شئت) (24) .

 **د- حكمة:**كتوقيع "أبو مسلم الخراساني" إلى عامل "بلخ" :(لا تؤخر عمل اليوم لغد).أو كتوقيع "الفضل ابن سهل" إلى حاجبيه:(تمهل ولا تسهل)،وإلى صاحب الشرطة:(ترفق توفق).وكتب غلمان "جعفر بن يحي البرمكي" يطلبون زيادة رواتبهم، فطلب "جعفر" من "عمرو بن مسعدة" أن يوقع على طلبهم فوقع:(قليل دائم خير من كثير منقطع) (25) .

 **4)- خصائصها الفنية والمعنوية:** لوحظ على فن التوقيعات مايلي:

 بعضها يستقل بنفسه في آداء المعنى،مثل توقيع "مسلم الخراساني" إلى عامل "بلخ".وبعضها الآخر لا يستقل بنفسه في أداء المعنى،أي إنه لا يفهم إلا في ضوء معرفة المناسبة التي قيل فيها،ومضمون الرسالة التي كتب عليها،فمن ذلك أن الضرابين في دار الضرب،رفعوا إلى "الصاحب إسماعيل بن عباد" ظلامة لهم مترجمة بالضرابين،فوقع "الصاحب" عند كلمة الضرابين (في حديد بارد)،فهذا التوقيع لا يستقل بمعناه،ولا يمكن فهمه إلا مقترنا بالظلامة نفسها،أو بالمقدمة التي وردت قبله(26) .

 تعتمد التوقيعات على الوجازة في التعبير وهذا هو الأصل،فهذا النوع من الكلام مما عدلوا فيه عن التطويل والتكرار إلى الإيجاز والاختصار.

ونادرا ما يعمد الكاتب إلى الإطالة على نحو ما وقع لـ"محمد بن عبد الله بن طاهر" على رسالة اعتذار،كان خط كاتبها رديئا ،ونص التوقيع هو:(أردنا قبول عذرك فاقتطعنا عنه ما قبلناه من قبيح خطك ولو كنت صادقا في اعتذارك لساعدتك حركة اليد،أو ما علمت أن حسن الخط يناضل عن صاحبه،بوضوح الحجة،ويمكن له درك البغية) (27) .

 إن ضروب البديع تشكل ظاهرة ملحوظة في كثير من التوقيعات وبخاصة الجناس والسجع،والتوقيع كما يبدو سجع خالص،فليس هناك وزير ولا كاتب في الدواوين،إلا وهو يتأنق في كتابته ويبالغ في تأنقه،حتى يجعل كتابته سجعا خالصا،نذكر توقيع وزير "المقتدر الثالث الخاقاني"،وقد كان شغوفا بالسجع شغفا شديدا ...فرفع في رسالة ذات يوم وجه بها إلى بعض عماله:(إلزام وفقك الله المنهاج،واحذر عواقب الاعوجاج،واحمل ما أمكن من الدجاج إن شاء الله)،وكان أن حمل العامل إليه دجاجا كثيرا،فقال:هذا الدجاج وفرته بركة السجع(28) .

 مما سبق نستنتج أن التوقيعات فن أدبي عماده البلاغة والإيجاز وحضور البديهة،وقوة البيان وشدة التكثيف.

 إذن،فالتوقيعات فن أدبي بديع من فنون النثر العربي،وهو عبارة عن أقوال بليغة موجزة،يكتبها المسؤول في الدولة أو يأمر بكتابتها ردا على ما يرفع إليه من قضايا.وهي ظاهرة فنية عربية ساعدت عدة عوامل على ازدهارها وتطورها،وهي لا تخرج في أغلبها عن الأنواع المعروفة عند العرب(قرآن كريم،حديث نبوي شريف،حكمة،مثل سائر،بيت شعري)،كما أن لها خصائص ومميزات محددة(الإيجاز، إصابة المعنى،السجع،الجناس،...إلخ•

**الهوامش:**

(1)- ابن منظور:لسان العرب،مادة(و.ق.ع)،ص

(2)- الزمخشري(أبو القاسم جار الله):أساس البلاغة،دار صادر،بيروت،1965،ص.ص686-687.

(3)- الفيروزأبادي(محمد بن يعقوب):القاموس المحيط،دار الجيل،بيروت،(د.ت)،ص96.

(4)- إبراهيم مصطفى وآخرون:المعجم الوسيط،،المكتبة الإسلامية،استانبول،ص.ص1062-1063.

(5)- المصدر نفسه،ص1063.

(6)- ابن منظور:لسان العرب،ص402.

(7)- حنا الفاخوري:الموجز في الأدب العربي وتاريخه القديم،دار الجيل للنشر والطباعة والتوزيع،بيروت،ص399.

(8)- أحمد حسن الزيات:تاريخ الأدب العربي،لجنة التأليف والترجمة والنشر،ص.ص219-220.

(9)- ينظر:هاشم صالح مناع:من روائع الأدب العربي،دار الوسام،بيروت،لبنان،ط1،1990،ص311.

(10)- شوقي ضيف:تاريخ الأدب العربي،العصر العباسي الأول ،دار المعارف،القاهرة،مصر،ط6،1966،ص489.

(11)- سامي يوسف أبو زيد:الأدب العباسي -النثر- ،دار المسيرة،عمان،الأردن،ط1،2011،ص188.

(12)- محمد عبد المنعم الخفاجي:الآداب العربية في العصر العباسي الأول،دار الجيل،بيروت،لبنان،ط1،1992،ص321.

(13)- حنا الفاخوري:الجامع في تاريخ الأدب العربي،،دار الجيل،بيروت،لبنان،ط1،1986،ص371.

(14)- ينظر: هاشم صالح مناع:من روائع الأدب العربي،ص312.

(15)- شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي،العصر العباسي الأول،ص390.

(16)- المرجع نفسه،ص390.

(17)- المرجع نفسه.

(18)- محمد عبد المنعم الخفاجي:الآداب العربية في العصر العباسي الأول،ص322.

(19)- ينظر:شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي،العصر العباسي الأول،ص390.

(20)- هاشم صالح مناع:من روائع الأدب العربي،ص313.

(21)- محمود عبد الرحيم صالح:فنون النثر في الأدب العباسي،دار جرير،عمان،الأردن،ط1،2011،ص.ص93-94.

(22)- المرجع نفسه،ص87.

(23)- المرجع نفسه،ص94.

(24)- المرجع نفسه،ص95.

(25)- محمد عبد المنعم خفاجي:الآداب العربية في العصر العباسي الأول،ص322.

(26)- ينظر:محمود عبد الرحيم صالح،فنون النثر في العصر العباسي،ص96.

(27)- شوقي ضيف:تاريخ الأدب العربي،العصر العباسي الأول،ص558.

(28)- المرجع نفسه،ص.ص558-559.

 **حكايات ألف ليلة وليلة:**

 "ألف ليلة وليلة" أو كما تعرف لدى الغرب (بالإنجليزية Arabian nights)؛أي الليالي العربية هي مجموعة متنوعة من الحكايات الشعبية عددها حوالي مئتي قصة يتخللها شعر في نحو 1420 مقطوعة،ويرجع تاريخها الحديث عندما ترجمها إلى الفرنسية المستشرق الفرنسي "أنطوان جالان" عام 1704م،والذي صاغ الكتاب بتصرف كبير،وصار معظم الكتاب يترجم عنه طوال القرن الثامن عشر وما تلاه،وقد قلدت الليالي بصورة كبيرة...وكانت مصدرا لإلهام الكثير من الرسامين و الموسيقيين.وتحتوي

قصص "ألف ليلة وليلة " على شخصيات أدبية خيالية كثيرة (1) ،كما عدت أشهر نموذج للحكايات الخرافية عبر العالم.فما هي حقيقة هذه الحكايات؟وما هو أصلها؟وما هي أهم التقنيات الفنية والأسلوبية التي تميز هذا النص النثري السردي الخرافي؟

 **1)-بدايات حكايات "ألف ليلة وليلة"(الحكاية الإطارية):**

تورد النسخ المختلفة من "ألف ليلة وليلة" ،في الصفحات الأولى والأخيرة من الكتاب والمتن،ما تخرف به "شهرزاد" لـ"شهريار".وثمة اختلاف كبير في رواية الخرافة بين نسخة وأخرى،بما لا يؤثر في بنيتها السردية.

 وتدور الخرافة حول ملكين شقيقين هما "شهريار" و"شاه زمان"،إذ يرسل الأول وهو ملك الصين في طلب أخيه ملك فارس،فيستجيب لطلبه ويغادر مملكته،ولكنه يعود لبيته لشيء افتقده،فيجد زوجته وعبدا له معا في فراشه،فيقتلهما حالا،ويستأنف رحلته إلى مملكة أخيه،وقد باغته الهم والحزن والحيرة لما جرى له،ويعتزل الحياة في قصر ملحق بقصر أخيه،وتفشل محاولات الأخ في الإطلاع على حقيقة أمره وفي يوم ما يدعوه "شهريار" لمصاحبيه في رحلة صيد،لكنه يمتنع،ويظل حبيس القصر يتفكر في أحواله،وقد شحب لونه،وتغيرت طباعه وفيما يغادر أخوه القصر إلى الصيد،ينتبذ هو مكانا إلى جوار نافذة القصر،تطل على بستان ملحق به،إذ يفاجأ بزوجة أخيه وجواريها وعبيدها،يمارسون الحب بين الأشجار دون خوف،ويتيقن أن ذلك يتكرر كلما غاب "شهريار" عن قصره،فيهون على نفسه ما جرى له،مقارنة بما يجري لأخيه،فيسترد عافيته ولونه،ويكتشف أنه ليس وحده فيما أصابه.

 وحالما يعود "شهريار" من رحلته،يلاحظ علامات التغير على وجه أخيه "شاه زمان" ويرجوه أن يخبره بأمره،لكن "شاه زمان" يتردد في كشف الحقيقة،وبسبب من إلحاح أخيه ورجائه،يخبره عن السبب الذي جعله يعتزل الحياة ويتغير حينما وصل زائرا،وذلك لأنه اكتشف خيانة زوجته له،لكن كشف جانب من حقيقة الأمر،جعل "شهريار" يشدد في إلحاحه،عن السبب الذي جعله يعود إلى ما كان عليه،فيخبره بعد تردد،بما رأى في بستان قصره،لكن "شهريار" لا يصدق قوله،فيدعوه أخوه لتدبير حيلة،تقوده إلى كشف حقيقة زوجته،وذلك بأن يعلن عن خروجه في رحلة صيد،ثم يعود خفية،لمراقبة ما يجري في حديقة القصر وبذلك يطلع على أمر خيانة زوجته له،فيقرر الأخوان في ضوء ما جرى لهما،هجرة مملكتيهما،والبحث عمن يواسيهما في المأساة التي وقعا فيها،فتقودهما قدماهما إلى ساحل بحر هائج،سرعان ما تقذف أمواجه الصاخبة جنيا ضخما إلى الشاطيء،فيلجآن خوفا منه إلى شجرة قريبة يتسلقان جذعها،ويختبآن بين أغصانها،فيما يتجه الجني إلى الشجرة نفسها،وهو يحمل صندوقا على رأسه،ويتكيء عليها،ويفك أقفال الصندوق،فتخرج منه جارية جميلة،خطفها ليلة عرسها،فيواقعها،وتأخذه بعد ذلك إغفاءة نوم،وحالما ترفع الجارية نظرها إلى أغصان الشجرة،تكتشف أمر "شهريار" و"شاه زمان" فتطلب إليهما إيماء،أن ينزلا ويواقعاها،وإلا أيقظت الجني إن هما امتنعا عن تحقيق رغبتها،فيستجيبان خوفا،وحالما يفرغان منها،تأخذ خاتميهما،وتضيفهما إلى خواتم كثيرة في كيس كان معها،يتراوح عدد الخواتم بين مئة وخمسمئة حسب اختلاف نسخ كتاب "ألف ليلة وليلة"،وتخبرهما أن عدد الخواتم في الكيس يساوي عدد الرجال الذين واقعوها في غفلة عن الجني،على الرغم من شدته وجبروته،واحتجازها في صندوق مقفل في قاع البحر،فيتعجب الملكان من أمرها غاية العجب،ويستهجنان ما جرى لهما،مقارنة بما يجري لهذا الجني المخيف،فيقرران العودة إلى مملكتيهما،والاندماج في الحياة ثانية،مقرين بعجزهما إزاء حيل النساء.

 وحالما يصل الأخوان إلى مملكتيهما حتى يقتل "شهريار" زوجته وخدم القصر رجالا ونساء،ويقرر ألا يتزوج سوى امرأة عذراء،يقتلها بعد أن يمضي ليلة معها،إلى أن يتعذر على الوزير الحصول على فتاة بكر تصلح أن تكون زوجة للملك،سوى ابنته الكبرى "شهرزاد" التي قرأت كتب التواريخ وسير الملوك المتقدمين،وأخبار الأمم الماضين،...وما أن يخبرها الوزير حتى توافق،ويتزوج الملك "شهرزاد"،فتبدأ في ليلة الزواج تحدثه بأحاديث عجيبة وطريفة،تستغرق ألف ليلة،فلا يمل من خرافاتها،ولا يستطيع قتلها شأن غيرها؛لأن قتلها سيفقده من يخرف عليه كل ليلة،إلى أن تمضي "شهرزاد" ألف ليلة تحقق خلالها أمرين:أولهما إنجاب ثلاث ذكور من الملك،وثانيهما:نجاحها في تغيير وجهة نظره اتجاه النساء،بإيرادها خرافات ذات أهداف اعتبارية،وملا الأمرين يتضافران معا،ليصرفا "شهريار" عن المضي في قراره القاضي بقتل المرأة العذراء خشية الخيانة(2)  .

  **2)- حقيقة الكتاب وأصله واسمه:**

 **أ-على اعتبار أنه عربي:**

يذهب الكثير من الدارسين العرب إلى أن هذا الكتاب الضخم من تأليف عربي،ويسوقون للاستدلال على ذلك مجموعة من الحجج والبراهين التي يدللون بها على صحة آرائهم،ومن هؤلاء نذكر "د.حامد صادق قنيبي" الذي يقول بأن: «هذا الكتاب وضع بين القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر،وهو كتاب قصص مشهور أعجب به الغربيون،وترجم إلى كثير من اللغات باسم (الليالي العربية) أو باسمه الحقيقي،وقد سموه بذلك لأن أكثر قصصه مطبوع بالطابع العربي،وقد ترجم أصل هذا الكتاب من الفارسية الفهلوية إلى اللغة العربية في القرن الثالث هجري فيما يظهر،وذلك حين ضعف شأن الخلفاء العباسيين،ويظن أن الكثير من القصص المطبوعة بالطابع الفارسي في كتاب ألف ليلة وليلة موجودة في كتاب "هزار إفسانة"،وأضيف إلى الأصل الفارسي الكثير من القصص والنوادر التي كانت موجودة عند العرب،أو وضعت في الأعصر التالية،ولم يزل هذا الكتاب يتضخم بما كان يضاف إليه من قصص في العهود التالية»(3)  .

 ومن الأدلة التي يسوقها للتدليل على صحة رأيه أن هذا الكتاب يمثل:

الأذواق القصصية في العصور العباسية العربية المختلفة،كما يمثل الأقاليم الإسلامية،ففيه قصص عربية تدور أحداثها في دمشق وتتحدث عن الخلفاء والولاة والأمويين،وعن بعض نساء العرب المشهورات،وفيه قصص مصدرها عراقي،وأحاديث عن مدينة بغداد والجزائر البعيدة،وقصص مصدرها مصري تدور أحداثها في مصر والإسكندرية،كما تمثل هاته الحكايات بعض عادات وأخلاق العرب،فهي تصور الانهماك في اللذات،وتنظر إلى المرأة نظرة مزدرية...على أن فيها بعض القصص التي تصور مكارم الأخلاق وتدعو إليها(4)

 أما الـ"د.داود سلمان الشويلي"،فيذهب إلى أن هذا الكتاب عربي الأصول، فيقول: «ألف ليلة وليلة سفر من أسفار الأمة العربية - رغم ما فيه من تأثيرات الحضارات الأخرى- إنه كتاب عربي مئة بالمئة وهو ابن حضارتها وثقافتها وأدبها.وهو إضافة إلى احتوائه على فن قصصي ذي نفس فني جيد،كثيرا ما تشدق المعنيون بتاريخ الفن القصصي بعدم احتواء الأدب العربي القديم على مثل هذا الجنس الأدبي،إن ما يحويه هذا السفر العظيم هو نفس ما احتواه الفن القصصي الروائي من خيال خصب لا يبتعد عن الواقع إلا بما تتطلب منه أساسيات هذا الفن،وهو إضافة إلى ذلك ينطلق من الواقع ليصب فيه»(5)  .

 أما ما انتاب الكتاب من هنات،فلها ما يعللها- حسبه-،إذ يقول:«...أما ما شابه من بعض العيوب فإنها تعود إلى القاص الشعبي الذي كانت الحكايات تنتقل على شفتيه ومن خلالها إلى السامع،حتى باتت بعض الحكايات عبارة عن صيغ مختلفة لحكاية معينة،فكان التكرار أحد العلل الفنية،إضافة إلى وجود بعض الصيغ الجاهزة في الوصف،وخاصة وصف المكان ووصف الجمال البشري،ووصف الحالة النفسية» (6)

 وهو الرأي ذاته الذي يذهب إليه الـ"د.طلال حرب"،حيث يقول: «...والذي نرجحه أن الكتاب من وضع عربي انطلاقا من أصول متعددة ومتنوعة،فقد قام مؤلفه الأول بالإطلاع على حكايات هندية وفارسية ويونانية ثم نقلها مع الكثير من التعديل،وتوالى عليه المؤلفون بالنقل والتعديل والتعريب والإضافة والتأليف حتى وصل إلينا في شكله الحالي الذي اكتمل في عهد المماليك» (7) .

 وللتدليل على ذلك يقول: «...وما يؤيد ما نذهب إليه وجود أسماء خلفاء كهارون الرشيد ووزراء كجعفر البرمكي،وخلط الشعر بالنثر،وهي مزية عربية خاصة وبارزة في هذا الكتاب.وذكر مدن كبغداد ودمشق وغيرهما،فضلا عن وجود مفاهيم إسلامية واضحة لا تخفى على من يتصفح الكتاب» (8) .

 **ب-على اعتبار أنه غير عربي:**

يغلب الظن أن هذا الكتاب اتخذ الصيغة النهائية بين القرنين الثالث عشر والرابع عشر،إلا أنه من الثابت تاريخيا أنه معروف منذ القدم،فقد ورد ذكره عند المؤرخ العربي الشهير "أبو الحسن بن علي المسعودي(346ھ/957م)" في مؤلفه "مروج الذهب ومعادن الجوهر" في فصل عنوانه "ذكر الأخبار عن بيوت النيران وغيرها" تحت عنوان "كتاب ألف ليلة وليلة"،ما نصه:

«...إن هذه أخبار موضوعة من خرافات مصنوعة،نظمها من تقرب للملوك بروايتها،وصال على أهل عصره بحفظها والمذاكرة بها،وإن سبيلها سبيل الكتب المنقولة إلينا والمترجمة لنا من الفارسية والهندية والرومية،وسبيل تأليفها مما ذكرنا مثل كتاب هزار أفسانة،وتفسير ذلك من الفارسية إلى العربية ألف خرافة،والخرافة بالفارسية يقال لها أفسانة.والناس يسمون هذا الكتاب ألف ليلة وليلة.وهو خبر الملك والوزير وابنته وجاريتها،وهما شيرزاد ودينازاد ومثل كتاب فرزة وسيماس ومافيه من أخبار ملوك الهند والوزراء،ومثل كتاب السندباد،وغيرها من الكتب في هذا المعنى... » (9) .

 نستنتج من نص "المسعودي" أن كتاب "ألف ليلة وليلة" كان معروفا في عهده(القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد)،وأن قصة "السندباد" ليست من أصله وإنما ألحقت به فيما بعد،كما أن مصدر القصص الواردة في الكتاب هندي وفارسي،إلا أنه بمرور الزمن وبفعل الزيادات والتغييرات التي لحقته، اتخذ الصبغة العربية،التي عرف بها فيما بعد عند الغربيين.

 ويذهب "محمد بن إسحاق بن النديم(438 ھ /1047م)" في كتابه "الفهرست" وهو يتحدث عن التأليف الخرافي إلى أن: «أول من صنف الخرافات،وجعل لها كتبا وأودعها الخزائن،وجعل بعض ذلك على ألسنة الحيوان،الفرس الأول.ثم أغرق في ذلك ملوك الإشغانية وهم الطبقة الثالثة من ملوك الفرس،ثم زاد ذلك واتسع في أيام ملوك الساسانية ونقلته العرب إلى اللغة العربية،وتناوله الفصحاء والبلغاء،فهذبوه ونمقوه،وصنفوا في معناه ما يشبهه فأول كتاب عمل في هذا المعنى،كان كتاب هزار أفسان،ومعناه ألف خرافة...وإن أول من سمر بالليل الإسكندر،وكان له قوم يضحكونه ويخرفونه.لا يريد بذلك اللذة،وإنما كان يريد الحفظ والحرس،واستعمل لذلك بعده الملوك كتاب هزار أفسان،يحتوي على ألف ليلة وعلى دون المئتي سمر،لأن السمر ربما حدث به في عدة ليال،ولقد رأيته بتمامه دفعات،وهو بالحقيقة كتاب غث بارد الحديث» (10) .

 يشير هذا النص إلى الريادة الزمنية للتأليف الخرافي وإلى أسبقية الفرس في التأليف الخرافي،وجعلها كتبا تودع في خزائن،وإلى طريقة تلقي العرب لهذه الخرافات،التي كانت معروفة عند الهند والفرس،ويؤكد "ابن النديم" أن العرب نقلت كل ذلك إلى العربية،وتناولوه بالتنميق والتهذيب والتعديل وصبغه بالطابع العربي.

 وفي العصر الحديث استمرت القضية في التفاعل،ولم يثبت أن هذا النص السردي الخرافي السحري العجائبي عربي الأصل،بل إن هناك من استمر يبحث فيه وفي أصوله،معتبرا إياه نتاج مجموعة من العوامل التي تضافرت لتشكيله،يقول "د.جمال البدري" في ذلك: «إن ألف ليلة وليلة نتاج أدبي فكري،سياسي،تاريخي،اجتماعي،له أهمية قصوى بين نتاجات الآداب العالمية في الشرق والغرب،قديما وحديثا لقي المزيد من الاهتمام المتجدد» (11) ،كما يذهب أيضا إلى أن نص الليالي قد خضع لعدة تطورات وتحويرات وأنه ليس عربي الأصل،ويسوق لذلك مجموعة من الحجج،فهو يرى أن:

- مؤلف الليالي ليس فردا واحدا(شخصا)،بل هي مؤسسة لها صفة الديمومة والاستمرارية،بغض النظر عن التطورات التاريخية والسياسية الثقافية المحيطة بها،كما أن هذا المؤلف ليس عربيا ولا مسلما،بل اتخذ العروبة والإسلام والآداب الشرقية وسيلة لغايات أبعد،وإن كان مقيما - آنذاك- في ديار العروبة والإسلام،وتحت خلافة بني العباس.

- إن الدافع لتأليف الليالي كان دافعا مستحدثا من قبل الخلافة العباسية،والليالي هي رد فعل (رمزي) لهذا الفعل،الذي ترتبت عنه نتائج تقترب بنا من الموروث اليهودي أكثر مما تقترب بنا من غيره.

- إن نص الليالي في نسخته الأصلية(العراقية) الأولى استند إلى جميع نتاجات الفكر والأدب والدين في المشرق العربي الإسلامي،ولكنه تعامل مع ذلك النتاج وفق رؤية خاصة،حذفا وإضافة تعديلا وتشويشا،وإبرازا لحقائق وطمسا لأخرى.إضافة لذلك فإن النسخ اللاحقة للنسخة البغدادية هي التي دخل إليها التحريف والإضافة،بما جعلها تبدو مؤلفا عربيا إسلاميا لغاية عصر المماليك(12).

- إن طبيعة تأليف الليالي شبيهة بطبيعة تأليف الكتب الدينية عند اليهود...فالتوراة البابلية والتلمود البابلي وهما أهم وأخطر كتابين يهوديين،لم يكتبا مرة واحدة،ولا في عهد واحد،وإنما أخذت التوراة وأخذ التلمود عدة مراحل وعهود كتابية،استغرقا عدة قرون،وقام بكتابة التوراة والتلمود أكثر من (قلم) وأكثر من كاتب،ولو أخذنا ألف ليلة وليلة سنرى شبها قويا لها بطبيعة تدوين الكتب اليهودية(13).

 أما الـ"د.محمد غنيمي هلال" في كتابه "الأدب المقارن"،فيرى في معرض حديثه عن فن القصة في الأدب العربي أن هذا النص السردي التراثي يمت بصلة قوية للقصة،غير أنه متعدد الأصول ففيه آثار لعدة ثقافات(الفرس،الهند،اليونان،المصريين)،كما أنه دون في عصور مختلفة،مما جعله يخضع لعدة تغييرات،«فأصل الكتاب كان مدونا،ثم نزل إلى الأدب الشعبي(الفولكلوري) فغير منه وزيد فيه.فلا ينبغي،إذن،إنكار تأثير الآداب الأخرى في نشأته ونموه بحجة أنه من الأدب الشعبي الذي تمحى فيه الحدود وتتشابه الآداب دون حاجة إلى تلاق تاريخي.ذلك أن هذا الكتاب لم ينشأ في أصله شعبيا» (14) حسب "د.محمد غنيمي هلال".

 أما عن العناصر الهندية في الكتاب،فتتمثل - حسبه- في تداخل القصص،وطريقة التساؤل وهما طريقتان هنديتان استخدمتا بالمثل في "كليلة ودمنة"،كذلك الإطار العام الذي تبدأ به القصص،إضافة لورود الكثير من قصص الحيوان الهندي.ثم إن الجزء الأكبر من القصص ذو طابع مصري؛لأن الكتاب كما هو بين أيدينا اليوم دون في مصر(15).

أما عن المؤثرات اليونانية ،«فقصة "السندباد البحري" تقابل - بما تحتوي عليه من مغامرات- ملحمة الأوديسة لهوميروس،وبخاصة في وصف الكهف الذي يتغذى فيه الوحش بالناس.وهذا الوحش في صورة رجل طويل القامة،طويا اللحية،له عينان كأنهما مشعلان،يعمي ضحاياه من البشر قبل أن يفترسهم،ويتغلب عليه في القصة سعيد فيقتله.وفي هذا ما يذكرنا بمخاطرة يوليس في كهف بولمفوس» (16).

 أما عن اسم الكتاب،فإنه لم يعرف قط،ولكن يقال إنه أطلق عليه اسم فارسي "هزار أفسانة" ويعني الخرافة،وأما الناس فيطلقون عليه اسم ألف ليلة وليلة؛ويعود سبب التسمية إلى أن العرب يميلون إلى الأرقام المفردة،وفي القرن الثالث عشر كان يعرف عند العرب كتابان قريبان من ألف ليلة وليلة هما ألف عبد وعبد ألف جارية وجارية،ومهما يكن من شأن في هذه التسمية فإن أمرا لا يشك في صحته أحد وهو أن عدد حكايات ألف ليلة وليلة لم يبلغ في حينه ألف حكاية ،ولا هي وزعت توزيعا صحيحا إلى ألف ليلة وليلة(17).

 إذن، فقد أثارت قضية أصول نص "ألف ليلة وليلة" وتسميته معضلة كبيرة،ذلك أن الكثير من الباحثين أجروا بحوثا معمقة ولم يصلوا إلى آراء يقينية أو نتائج محددة يمكن أن نطمئن إليها،ومع ذلك يمكن أن نستعين بهذا الجدول(٭) التوضيحي لـ"د.عبد الله إبراهيم" الذي يجمع فيه مختلف الآراء وأصحابها حول أصول هذا السفر الضخم،ومصدره،ومؤلفه،وتاريخ جمعه:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| الموضوع | الرأي | صاحب الرأي |
| أصول الكتاب | 1-هندي.2-فارسي.3-عربي.4-ھ+ف+ع5- ھ+ف.6- ف+ع. | 1- شليجل،كوسكين،بريزلسكي،السدروف،فنترنيتز،غالان.2- برتن،ماكدونالد،علي أصغر حكمت،آدم متز.3- مرتاض،محسن مهدي، خلوصي،الصالحاني،الشيرواني، لين،دوساسي.4- أويستروب،فون هامر،لبيديف،طرشونة،ميخائيل عواد،موسى سليمان،ديرلاين،حسين فوزي.5- هيروز،سكوت.6- الزيات،ليتمان،بويسون،فاروق سعد. |
| مصدر الكتاب | 1- ھ. أفسانة.2-ھ. أفسانة+ح.عربية. | 1- برتن،ديرلاين،علي أصغر حكمت.2- ماكدونالد،فون هامر. |
| مؤلف الكتاب | 1-جماعي التأليف.2-مؤلف عربي.3-مجهول. | 1- الزيات،أويستروب،فؤاد حسنين،دوساسي،ليتمان،طرشونة،سليمان،حسين فوزي.2- الشيرواني،الصالحاني،شوفان،خلوصي.3- القلماوي،لين. |
| تأليف الكتاب | 1-أزمنة غيرمحددة.2-ع.العباسي.3-ع.الفاطمي4-ق.6ھ.5-ق.9ھ.6-ق.10ھ. | 1- الزيات،الصالحاني،القلماوي،فؤاد حسنين،منير بعلبكي،فاروق سعد.2- نبيهة عبود،خلوصي،هلال ناجي،دوساسي،المنجد.3- ماكدونالد.4- برتن،ليتمان.5- لين،شوفان.6- جورجي زيدان. |
| تاريخ الجمع | ق.13/16م.1475/1525م17-1526م.930ھ.ق.18م. | 1- برتن،بعلبكي.2- لين.3-الزيات.4- ميخائيل عواد.5- ماكدونالد. |

 **3)-ألف ليلة وليلة من الناحية الفنية والأدبية:**

"ألف ليلة وليلة" كتاب ضخم جمعت فيه عشرات الحكايات، التي اعتمدت أساسا على حكاية واحدة افتتح بها هذا السفر العظيم،فكان ذلك بداية أسلوب فني جديد،إن الحكاية التي اعتمدت بنيت على أساس أن (المرأة هي سبب المكر والخيانة)،ثم تتوالد بعد ذلك مجموعة من الحكايات الأخرى المشوقة.

 إن الحكاية الرئيسية كما يذهب الـ"د.داود سلمان الشويلي": «يمكن أن نطلق عليها اسم حكاية (المفتتح) ذلك لأن السرد القصصي في هذا الكتاب قد ابتدأ بها،فكانت فاتحة له،فجاءت كعنقود العنب في تصميمه،...وتتفرع منها حكايات أخرى أطلقنا عليها اسم (حكايات الإطار) أي الجامعة لنوع آخر من الحكايات،لا تختلف عنها بشيء،ولكن تدخل في بنائها ومحتواها،وقد أسمينا هذا النوع من الحكايات بحكايات (التضمين)؛أي الحكايات التي جاءت ضمن حكايات الإطار.وقد توالدت حكايات أخرى داخل حكايات التضمين أسميناها حكايات (خارج السياق) »(18).

 إذن،فنص "ألف ليلة وليلة" يتضمن أربعة أنواع من الحكايات هي:حكاية المفتتح (أي الأصلية وتتضمن ما جرى لشهريار منذ اكتشافه خيانة زوجته الأولى )،حكايات الإطار(ما قصته شهريار أمام زوجها الملك)،حكايات تضمينية،حكايات خارج السياق،أما عن وظيفة النوع الأخير فقد جاءت لـ«التسلية عن أحد شخوص الحكاية،للعبرة،لدفع مكروه عن أحد الشخوص،أسباب أخرى متنوعة»(19).

 وعلى العموم يمكن أن نشير إلى أهم التقنيات السردية المعتمدة في هذا الكتاب،والتي نجملها فيمايلي:

- التداخل السردي للأحداث،ومن دراسة هذا الجانب الفني المهم،والذي تعتمد عليه تقنية بناء المشهد السردي للأحداث،يمكن استخلاص نوعين من تداخل السرد هما:تداخل السرد التضميني،وتداخل السرد التراكمي(20).

- أما بالنسبة للزمن المستخدم في المبنى الحكائي "لليالي"، فهو يتميز بمجموعة من الخصائص،منها استخدام صيغة الماضي،ولذلك جاءت كل الليالي تبدأ بالجملة المعهودة (بلغني أيها الملك السعيد)،إضافة إلى كونه زمنا تخييليا ذلك أن ما ترويه "شهرزاد" أمام الملك سابق لوقت السرد،كما أن صيغ الزمن الثلاث من ماض وحاضر ومستقبل تأخذ لها في هذا النص مسارا خطيا متذبذبا يجمع بينها تسلسل غير منتظم(21).

- بروز عناصر فنية في "الليالي" كالتشويق ومرونة السرد ،وإمكانات إضفاء الخيال على الموضوع الرئيسي وتوسيعه عبر إضافات ومسارات تتواصل مع الموضوع الرئيسي.

- قدرة "شهرزاد" على السرد الارتجالي ساعدتها على تغيير مصيرها، عبر إطالة زمن الحكايات،والإتيان في كل ليلة بجديد أو مزيد من القصص،رغم أنها أحيانا تضطر إلى الخروج عن الخط العام للحكي من خلال طرح غريب أو طاريء(22).

- أما أسلوب كتابة "ألف ليلة وليلة" ،فقد اعتمد على الاستفادة من جميع النتاج الفكري والثقافي والأدبي للشرق القديم خصوصا العربي الإسلامي،دون الإشارة لمصدر محدد تم الاعتماد عليه،مع إدخال تعديل وتحريف وإضافة بما يتناسب وأهداف المؤلف[أو المؤلفين] ،وعلى الرغم من ذلك ،فإن الطابع العراقي/العباسي والبغدادي/البصري منه بالذات هو السائد في عموم الليالي(23).

 ومع ذلك ،فإن هذا الموروث الضخم ذو الطابع السحري العجائبي ،والمليء بالمغامرات والخيال،قد شابته هنات كثيرة تحدث عن بعض منها الـ"د.حامد صادق قنيبي"،وهو يتعرض لدراسة هذا النص الأدبي النثري العباسي،فأشار إلى أن:

- الكتاب مطبوع بطابع المبالغة التي تصل أحيانا إلى حد الخرافة كقصص "السندباد"،ولكن مع ذلك فيه بعض القصص التي تقترب من الواقع،وهي على الجملة مجموعة قصص مختلفة المواضيع والأساليب والأغراض،وفيه الكثير من الألفاظ البذيئة التي يترفع الأديب عن قراءتها،رغم تهذيب الطابعين له.

- ينقص الكثير من قصصه تماسك الموضوع،وارتباط النتيجة بالمقدمة،ولكن بعضها الآخر لا يخلو من توفيق في حبك القصة،وفي وضع أبطالها في مواقف محرجة تشوق القاريء إلى معرفة صورة حلها،مع إبداع في الوصف وانسياق في الخيال،وإحسان في التعبير(24).

- يقتصر الوصف في القصص على وصف الأحوال الظاهرة،ولا يعنى بتحليل النفوس،والتغلغل في طبائع النفوس البشرية،ودراسة الأخلاق؛ولهذا عدت من بعض النواحي قصصا غير راقية.

- لغة هذا النص السردي وعباراته سهلة على العموم،ولكنها تختلف باختلاف العصر،فالقصص التي وضعت في العهود الأولى يصدق عليها هذا الحكم،في حين أن القصص التي دونت في العهود الأخيرة،وهي مصرية في أغلبها،فعباراتها ركيكة لا تخلو من الخطأ،بل إنها كثيرا ما تقترب من العامية(25).

 غير أن الشيء الثابت رغم ما سبق من ملاحظات،هو أن هذا السفر العظيم حظي بشهرة كبيرة في العالم،وترجم إلى عدة لغات ،وكان مصدر وحي وإلهام للعديد من الفنانين والمبدعين على مر العصور،إن "ألف ليلة وليلة" بالفعل كما وصفها الـ"د.جمال البدري" :

«1- ليست قصصا وحكايات..2- وليست أساطير وخيالات..3- وليست جنيات وعفاريت..4- وليست شهوات ومؤامرات...5- وليست أسفارا ومغامرات..فحسب،وإنما ألف ليلة وليلة هي:برنامج فكري شامل (مشفر) يستند إلى أسس ثابتة متوارثة»(26)،بل إن بعض النقاد الغربيين اعتبر «قصص "ألف ليلة وليلة" وسيلة لتطهير النفس من أدرانها وآلامها،مشيرين،بعد توضيح حقيقة الجرح النفسي الذي مني به "شهريار" من جراء خيانة زوجته وزوجة أخيه إلى أن ذاته المجروحة لم تستطع شفاءها وإعادة توازنها، إلا سلسلة من الحكايات الشعبية امتدت أكثر من ثلاث سنوات» (27).

 ويبقى نص "ألف ليلة وليلة" رغم غموضه وتعدد الدراسات حوله،إنجازا أدبيا عربيا ضخما ليس على مستوى العالم العربي فحسب،بل على مستوى العالم أجمع،إنه أشبه ما يكون بسجل أدبي تاريخي وحضاري،احتوى ميراث الإنسانية كلها منذ قديم الزمان•

**الهوامش:**

(1)- «ألف ليلة وليلة»،من ويكيبيديا الموسوعة الحرة (إلكترونية).

(2)- ينظر:عبد الله إبراهيم:السردية العربية (بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي)،المركز الثقافي العربي،بيروت،لبنان،ط1،1992،ص.ص94-95.

(3)- حامد صادق قنيبي:الأدب العباسي (النثر)،دار ابن الجوزي للطباعة والنشر والتوزيع،عمان،الأردن،(د.ط) ،2008، ص208.

(4)- ينظر:المرجع نفسه:ص209.

(5)- داود سليمان الشويلي:ألف ليلة وليلة وسحر السردية العربية،إتحاد الكتاب العرب،دمشق،سوريا،2000،ص9.

(6)- المرجع نفسه.

(7)- طلال حرب:نظرات في النقد والقصة والأسطورة والأدب الشعبي،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،

ط1،1999،ص44.

(8)- المرجع نفسه.

(9)- المسعودي:مروج الذهب ومعادن الجوهر،دار الأندلس،بيروت،1973،ص251.

(10)- ابن النديم:الفهرست،تح:رضا تجدد،طهران،1971،ص363.

(11)- جمال البدري:اليهود وألف ليلة وليلة ،دراسة تحليلية نقدية مقارنة من الأعماق إلى الأفاق،بغداد،ط1،1998،ص11 .

(12)- المرجع نفسه،ص10.

(13)- المرجع نفسه،ص.ص6-7.

(14)- محمد غنيمي هلال:الأدب المقارن،دار العودة ،بيروت1983،ص221.

(15)- ينظر:المرجع نفسه،ص222.

(16)- ينظر:المرجع نفسه،ص.ص222-223.

(17)- [www.alwaraq.com](http://www.alwaraq.com)

(٭)-عبد الله إبراهيم:السردية العربية (بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي)،ص91.

(18)- داود سليمان الشويلي:ألف ليلة وليلة وسحر السردية العربية،ص.ص10-11.

(19)- المرجع نفسه،ص11.

(20)- ينظر:المرجع نفسه،ص36.

(21)- ينظر:المرجع نفسه،ص48.

(22)- www.marefa.org

(23)- ينظر: جمال البدري:اليهود وألف ليلة وليلة،ص61.

(24)- ينظر: حامد صادق قنيبي:الأدب العباسي (النثر)،ص209.

(25)- ينظر:المرجع نفسه،ص210.

(26)- جمال البدري:اليهود وألف ليلة وليلة،ص11.

(27)- برونو بتلهايم:التحليل النفسي للحكايات الشعبية،تر:طلال حرب،دار المروج،بيروت،1985،ص31.

 **فن المقامة:**

لقد خطى النثر العربي في العصر العباسي خطوات جبارة،وذلك بفعل عدة عوامل ساهمت في رقيه وازدهاره،إذ شجع الخلفاء الحركة العلمية وعملية الترجمة والنقل من الأمم الأخرى،فاتسعت دائرة الفنون واستحدثت فيها ألوان جديدة،فظهر إلى الوجود ما أسمي حينها بـ (فن المقامة)،هذا الفن الذي غير تعداد الفنون النثرية والأنواع المعروفة آنذاك.فما المقصود به؟ومن هم المؤسسون الأوائل له؟وما هي سمات هذا اللون؟

 **1)- مفهومها:**

تكاد تجمع أغلب الكتب على أن للمقامة **لغة** عند العرب عدة معان أشهرها:المجلس، الحديث، الخطبة، الجماعة،...إلخ. يقول "ابن منظور" على سبيل المثال:«المَقَامُ والمَقَامَةُ الموضع الذي تقيم فيه،والمُقَامَةُ بالضم الإقامة،والمَقَامَةُ بالفتح:المجلس والجماعة من الناس»(1) .

 ولقد وردت في قول الشاعر العربي "لبيد بن ربيعة العامري":

عفت الديار محلها فمقامها ☼ بمنى تأبد غولها فرجامها.ومعنى مقامها في البيت الشعري (الموضع).

 واستعملها "زهير بن أبي سلمى" بمعنى (السادة) في قوله:

وفيهم مقامات حسان وجوههم ☼ وأندية ينتابها القول والفعل.ذلك كان مفهوم المقامة في الجاهلية ثم تطور هذا المفهوم حتى أصبحت تعني الأحدوثة من الكلام(2).

 وبالتدريج تطور المدلول اللغوي إلى مدلول **اصطلاحي،** لتعني ذلك الفن العربي الذي ابتدعه "الهمذاني(أبو الفضل أحمد بن الحسين)(٭)"(358ھ/969م-398ھ-1008م) - الذي اشتهر بـ"بديع الزمان"- في القرن الرابع الهجري،والذي يحتل الرتبة الرابعة ضمن فنون النثر (المقالة،الخاطرة،القصة،المقامة،فن الأمثال)؛وهي أحاديث خيالية بليغة فصيحة متفاوتة الحجم بطلها رجل هو "أبو الفتح الإسكندراني"،إنسان مكد متسول ماكر بارع الحيلة،إلى جانب كونه بليغا فصيحا مقوالا،يرويها راو هو "عيسى بن هشام".

 ويمكن تعريفها أيضا بأنها «قصة قصيرة الحجم،تكتب بلغة ممشوقة (إيقاعية) وموضوعها يدور حول حدث واحد متخيل،وشخصياتها الثانوية محدودة،ويؤدي دور البطولة فيها بطل محتال جواب أفاق،ويشاركه راوية يتعرف إليه إثر كل مغامرة ويرويها عنه،وتقع أحداثها في حدود مدينة أو منطقة واحدة،وفي زمن لا يتجاوز مقدار يوم وليلة،وهي بذلك تعد عملا أدبيا يتخذ القالب القصصي طابعا عاما،ولغة المقامة تميل إلى السجع،ولها راو وبطل»(3).

 **2)-الأصول الفنية للمقامة:**

اختلف النقاد والباحثون ومؤرخو الأدب في تحديد الجذور التاريخية لفن المقامة،فهي وإن ظهرت متكاملة على يدي "بديع الزمان" ،فقد سبقتها إرهاصات فنية أشار إليها "الحصري القيرواني"،فذكر أن "بديع الزمان" ألف هذه المقامات معارضة ومحاكاة لأحاديث "ابن دريد(أبو بكر محمد بن الحسن)"،الذي أغرب بأربعين حديثا،استنبطها من ينابيع صدره،وأنتجها من معادن فكره،ثم أبداها للأبصار والبصائر،وأهداها إلى الأفكار والضمائر،في معارض حوشية وألفاظ عنجهية،...فعارضه "البديع" بأربع مئة مقامة تذوب ظرفا وتقطر حسنا(4).

 ووازن الـ"د.شوقي ضيف" بين أحاديث "ابن دريد" ومقامات "البديع"،فذكر أن ما رواه "القالي" في "أماليه" يدور غالبا حول حكايات عربية قديمة،في حين تدور المقامات حول التسول والكدية،غير أنهما ألفتا لغاية واحدة وهي تعليم الناشئة اللغة(5).

 وذهب "الثعالبي" إلى أن "ابن فارس(-390ھ)" يعد من المصادر المهمة التي تأثر بها "بديع الزمان الهمذاني" حين أنشأ مقاماته،فأشار إلى تلمذة البديع" له(6).

 ومهما يكن من أمر،فإن هذا الفن جاء وليد مؤثرات كثيرة شكلت دافعا مشتركا لكتابة المقامات، نوجزها فيما يلي:

أ- مؤثرات فنية:هي قصص الوعاظ وأحاديث الأعراب التي تقوم على الكدية ووصف الجوع والفقر،والحكايات التي سجلها "الجاحظ" في غير كتاب من كتبه،وكلها تدور حول البخلاء والمكدين واللصوص والظرفاء والشطار.

ب- مؤثرات اجتماعية:هي عصر "البديع" الذي كثر فيه أهل الكدية،وظهر الساسانيون وهم طائفة تنسب إلى ساسان أحد أبناء فارس،يقال إن أباه حرمه من الملك،فهام على وجهه محترفا الكدية،وقد صورت المقامات حياة هؤلاء الأدباء السيارين الذين كانت لهم مكانة أدبية في ذلك العصر،وهذا يعني أن "بديع الزمان" قد ابتكر فن المقامة في إطار هذه المؤثرات(7).

**3)- خصائص المقامة عند "بديع الزمان الهمذاني":**

 المقامة كتابة يغلب عليها السجع وحوشي الألفاظ وغريبها،إضافة إلى غناها بالصور البيانية والمحسنات البديعية،ومن هنا قيل إن الهدف الرئيسي من تأليفها هو تعليم الناشئة غريب اللغة وفنون القول...إضافة إلى كونها وسيلة ناجعة من وسائل النقد الاجتماعي،لمعالجة بعض الأمراض التي تفشت في عضد الدولة الإسلامية،وذلك في إطار من المغامرات الهزلية المضحكة(8).

 راوية المقامات هو "عيسى بن هشام" الذي يستهل المقامات بعبارة «حدثنا عيسى بن هشام»،وهو رجل أسفار وترحال وتجارة واحتيال،يتحدث عن اغترابه ومصادفته لـ"أبي الفتح الإسكندراني" بطل هذه المقامات،وهو رجل علم وثقافة،يقول الشعر،ويسلك أوعر المسالك في اللغة والأدب والنقد،يحتال على دهره القاسي بشتى الطرق،فتارة يكون خطيبا،وتارة مشعوذا،وقد حمله زمنه القاسي على هذا السلوك،فتصعلك وتسول وامتهن الكدية وتجول في مختلف البلدان وتقلب مع تقلبات الزمان(9).

 تأخذ المقامة شكل القصة الفنية غالبا،وتقوم على السرد والوصف وتحليل الشخصيات،وهي تخلو من العقدة بالمعنى الفني،بل تقوم على الأزمة التي تجد حلا سريعا،ومن ثم يغلب عليها الإمتاع والتشويق(10).وهذا إن دل على شيء ،فإنما يدل على أن الباحثين في عصرنا الحالي،الذين عقدوا مقارنة بين هذا الفن والقصة الحديثة، إنما يحملون "البديع" معنى لم يقصد إليه أصلا.

 يستخدم "البديع" في مقاماته الشعر،إما يقتبسه أو ينشئه هو بحد ذاته،و«شعره سهل واضح المعاني - في الغالب- يخالف لغة نثر المقامات في أنه لا يسايرها في الألفاظ الغريبة التي كثرت في بعضها.ويتسم شعره أيضا بالتصوير بما فيه من قدرة على الوصف وإبراز للحركة....ويعتمد على الأوزان الخفيفة والمجزوءة،وذلك حتى تناسب جو الفكاهة ويسهل على الأذن استماعها وأغلب شعره مقطوعات قصيرة»(11) .

 **4)- فن المقامة عند "الحريري":**

 صرح "الحريري(القاسم بن علي بن محمد بن عثمان)"(446ھ-1054م/516ھ-1112م) أنه كتب مقاماته (معارضة) لمقامات "البديع"،الذي كتب أكثر من أربع مئة مقامة،لم يبق منها إلا اثنتان وخمسون مقامة هي:

القريضية،الأزاذية،البلخية،السجستانية،الكوفية،الأسدية،الغيلانية،الأذربيجانية،الجرجانية،

الأصفهانية،الأهوازية،البغدادية،البصرية،الفزارية،الجاحظية،المكفوفية،البخارية،القزوينية،الساسانية،

القردية،الموصلية،المضيرية،الحرزية،المارستانية،المجاعية،الوعظية،الأسودية،العراقية،الحمدانية،

الرصافية،المغزلية،الشيرازية،الحلوانية،النهيدية،الإبليسية،الأرمنية،الناجمية،الخلفية،النيسابورية،العلمية،

الوصية،الصيمرية،الدينارية،الشعرية،الملوكية،الصفرية،السرية،التميمية،الخمرية،المطلبية،البشرية(12).

 وبالمثل يكتب "الحريري" هو الآخر خمسين مقامة،معارضا "البديع" يتلوه فيها «تلو البديع،وإن لم يدرك الضالع شأوالضليع»(13)،وهي:

الصنعانية،الحلوانية،الدينارية،الدمياطية،الكوفية،المراغية،البرقعيدية،المعرية،الإسكندرية،الرحبية،الساوية،الدمشقية،البغدادية،المكية،الفرضية،المغربية،القهقرية،السنجارية،النصيبية،الفارقية،الرازية،الفراتية،

الشعرية،القطيعية،الكرجية،الرفطاء،الوبرية،السمرقندية،الواسطية،الصورية،الرملية،الطيبية،الزبيدية،

الشيرازية،الملطية،الصعدية،المروية،العمانية،التبريزية،التنيسية،النجرانية،البكرية،الشتوية،الحلبية،

الحجرية،الحرامية،الساسانية،البصرية،التفليسية(14).

 وقد كتب "الحريري" مقاماته سالكا فيها مسلك "الهمذاني"،من حيث وجود شخصيتي الراوي "الحارث ابن همام" والبطل "أبو زيد السروجي".

 وقد أملى "الحريري" مقاماته على لسان "السروجي" وهو من أهل الكدية الذين امتهنوا التسول،وكانت وسيلته في ذلك فصاحة لسانه وسحر بيانه،وهو يظهر في كل المقامات،وغالبا ما تساعده زوجته وولده،وهما يشاكلانه في الخداع والخبث والفصاحة،أما الراوي "الحارث بن همام" فهو رحالة أَبِيُّ النفس بعيد عن مسالك اللصوص،ولكنه يصاحب "أبا زيد" ويتعاون معه،لكنه يقلع عن الاحتيال ويتنسك ويتوب توبة نصوحا،ويفارق راويته في المقامة الأخيرة(15).

 وتتكون كل مقامة عند "الحريري" من (مقدمة،عرض،خاتمة).أما المقدمة فتدور حول فكرة واحدة،ولكنها ترد في صيغ لغوية مختلفة،إنها تتضمن فكرة المطاردة بين الراوي والبطل،يظهر البطل فجأة وفي أماكن متباعدة قد تكون في المشرق أو في المغرب،والراوي يتابعه ولا يمل،ويصحب ظهور البطل مظهر غريب يشد الانتباه ويثير التشويق،ويحدث الشيء نفسه مع الخاتمة،إذ يبقى القاريء دائما مبهورا(16).

 وتدور موضوعات مقامات "الحريري" حول الاحتيال بطرق شتى،فتارة تأخذ شكلا دينيا وخلقيا كما في (المقامة الصنعانية)،وتارة شكلا أدبيا وفكاهيا كما في (المقامة القطيعية) و(الواسطية)،وتارة أخرى شكلا مجونيا كما في (المقامة الرحبية).

 وتحتوي هذه المقامات على جد القول وهزله ورقيق اللفظ وجزله وغر البيان ودرره،ومُلَحِ الأدب ونوادره،فضلا عن الأبيات والأمثال والأحاجي واللطائف والخطب والرسائل والمواعظ(17).

 ورغم أن "الحريري" قلد "الهمذاني"،إلا أنه «تفوق عليه،فخطا بهذا الجنس الأدبي خطوات لم يبلغ فيها شأوه أحد من الذين قلدوه،قبل عصرنا الحديث»(18).

  **5)- تأثير فن المقامات:**

يعد "بديع الزمان" بالفعل أستاذ فن المقامات ومبدعها في الأدب العربي،ثم تبعه "الحريري" في ذلك،

وقد قطع هو الآخر شوطا بعيدا في التمرس بهذا الفن،والتلاعب بأدواته...ثم كثرت بعدهما المقامات التي نذكر منها النماذج الآتية:

- مقامات السرقسطي:تبلغ خمسين مقامة،كتبها مؤلف أندلسي حاكى فيها مقامات "الحريري،من حيث التركيز على الصنعة اللفظية،وتسمية وتسمية مقاماته بأسماء بلدان مشرقية،وتعد نموذجا للمقامات الأندلسية والمغربية.

- مقامات الزمخشري(-538ھ):تدور مقاماته حول الوعظ والإرشاد الديني،وتخلو من البطل والراوي،

يبدأها بقوله مخاطبا نفسه:«يا أبا القاسم»،ثم يسترسل في موضوعها ذي الصلة بعنوانها،مثل مقامة الطاعة،مقامة التوحيد،مقامة التقوى،ويختمها بمقامة النحو،ومقامة العروض،ومقامة القوافي...إلخ.

- المقامة الزينية:أنشأها "ابن الصقلي الجزري"،ويبلغ عددها ثمانون مقامة،قصد منها الناحية التعليمية وسار فيها على نهج "الحريري".

- مقامات السيوطي:وتبلغ ست مقامات تقوم على المناظرة والمحاجة بين سبعة أصناف - في الغالب- من

الرياحين أو الخضراوات(19).

 كما أثرت المقامات أيضا في الآداب الأجنبية المختلفة،فترجمت إلى عدة لغات منها الإنجليزية،الألمانية،

الفارسية،التركية،وقد أفادت آداب هذه اللغات من هذا الجنس الأدبي،واهتم أدباؤها بالنسج على منوالها،

فكان "القاضي حميد الدين أبو بكر عمر بن محمد البلخي" أشهر أصحاب المقامات في الأدب الفارسي،

فكانت إحدى مقاماته وهي المقامة (السكباجية) مقتبسة من المقامة المضيرية "لبديع الزمان"(20) .

 ويرى "د.محمد غنيمي هلال" أن المقامات أثرت في قصص الشطار الأوروبية ذات الطابع الواقعي،

وخصوصا قصص الشطار الإسبانية...كذلك أفاد الأدب الألماني من هذا الفن،إذ اكتسب ثروة لا بأس بها

من نصوص المقامات،حتى إن السجع دخل إلى اللغة الألمانية لأول مرة عن طريقها(21).

 وصفوة القول،إن فن المقامة فن عربي استحدث في العصر العباسي،وذلك في النصف الثاني من القرن الرابع هجري،وقد لاقت صدى كبيرا في مختلف البلدان الإسلامية،ثم تلا "البديع" في هذا الفن النثري

"الحريري"،إذ صار الأشهر بعده،ولهذا الفن سمات خاصة تميزه عن باقي الفنون النثرية،بحيث منحته تلك السمات قيمته الجمالية،لينظم بذلك إلى تعداد الأنواع الأدبية المعروفة.

**الهوامش:**

(1)- ابن منظور:لسان العرب،م12،ص498.

(2)- عبد العزيز عتيق:الأدب العربي في الأندلس،دار النهضة العربية،بيروت،لبنان،(د.ت)،ص476.

(٭)- هو أبو الفضل أحمد بن الحسين،الملقب ببديع الزمان الهمذاني،ولد في همذان،وهي مدينة جبلية في إيران سنة385ھ،

وهو من أصل عربي كريم...أخذه أبوه بالتعليم والتثقيف،ومن أهم أساتذته أحمد بن فارس،رحل إلى كثير من البلدان وقصد

كثيرا من الأمراء،ونال عندهم شأنا كبيرا،ثم استقر في هراة ولم يفارقها،توفي في سن الأربعين سنة398ھ.

(ينظر: حامد صادق قنيبي:الأدب العباسي (النثر)،ص128).

(3)- سامي يوسف أبو زيد:الأدب العباسي النثر،دار المسيرة للنشر والتوزيع،عمان،الأردن،ط1،2011،ص127.

(4)- ينظر:الحصري القيرواني(أبو إسحاق إبراهيم بن علي):زهرة الآداب وثمرة الألباب،دار الجيل،بيروت،لبنان،ط4،

(د.ت)،ص307.

(5)- شوقي ضيف:الفن ومذاهبه في النثر العربي،دار المعارف،مصر،ط8،1960،ص248.

(6)- الثعالبي(أبو منصور عبد الملك بن محمد):يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر،تح:محي الدين عبد الحميد،دار الكتب

العلمية،بيروت،لبنان،ط1،1979،ص463.

(7)- سامي يوسف أبو زيد:الأدب العباسي النثر،ص229.

(8)- محمد التنوجي:المعجم المفضل في الأدب،دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان،ط1،1993،ص817.

(9)- سامي يوسف أبو زيد:الأدب العباسي النثر،ص130.

(10)-المرجع نفسه،ص132.

(11)- علي محمد السيد خليفة:الفكاهة في مقامات بديع الزمان الهمذاني،دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر والتوزيع،

الإسكندرية،مصر،ط1،2010،ص134.

(12)- ينظر:الهمذاني:شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني، دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان،ط1،1979.

(13)- الحريري:مقامات الحريري،دار صادر،بيروت،1965،ص13.

(14)- المصدر نفسه.

(15)- ينظر: سامي يوسف أبو زيد:الأدب العباسي،ص251.

(16)-ينظر:إبراهيم عبد الحميد:الأدب المقارن من منظور الأدب العربي،دار الشرق،لبنان،ص35.

(17)- ينظر: سامي يوسف أبو زيد:الأدب العباسي،ص253.

(18)- محمد غنيمي هلال:الأدب المقارن،ص226.

(19)- ينظر:زكي مبارك:النثر الفني في القرن الرابع هجري،كتاب إلكتروني.

(20)- ينظر: سامي يوسف أبو زيد:الأدب العباسي النثر،ص254.

(21)- ينظر:محمد غنيمي هلال:الأدب المقارن،ص229.

 **فن الترسل:**

 مما لا شك فيه أن أدب الترسل قديم عند العرب،وله وقفات في تاريخها الأدبي،فقد ألفت فيه كتب كثيرة،

وظهرت أسماء لامعة أصبحت علما عليه،وقد ازدهر هذا الفن النثري الكتابي في القرنين الثالث والرابع

الهجريين،وقبل أن نسترسل فيما يخص هذا الفن يجدر بنا أن نطرح أسئلة من هذ القبيل :ما معنى هذا الفن النثري؟وما هي أنواعه؟ومن هم أشهر كتابه؟وما خصائصه؟...

 **1)- مفهومه اللغوي والاصطلاحي:**

إذا أردنا إعطاء تعريف **لغوي** للرسالة،فإننا نقول:«رَاسَلَهُ مُرَاسَلَةً،فهو مُرَاسِل وَرسِيْلٌ والتَرَسُّلُ كالرَّسْلِ في القراءة والتَّرْسِيْلُ واحد،قال:وهو التحقيق بلا عجلة.وفي موضع ثان قال:الترسل من الرسل في الأمور

والمنطق كالتمهل والتوقر والتثبت،وجمع الرسالة الرسائل.

قال ابن جني:التَرَسُّلَ في الكلام التوقر والتفهم والترفق من غير أن يرفع صوته شديدا.والإرسال:التوجيه،

وقد أرسل إليه،والاسم الرسالة والرسالة الرسول والرسيل،الأخيرة عن ثعلب،وأنشد:

لقد كذب الواشون ما بحت عندهم بليلي،ولا أرسلتهم برسيل.

والرسول بمعنى الرسالة،يؤنث ويذكر،فمن أنث جمعه أرسلا،قال الشاعر:قد أتتها أَرْسُلِيْ.ويقال:هي رسولك.وتراسل القوم:أَرْسَلَ بعضهم إلى بعض.والرسول الرسالة والمرسل وأنشد الجوهري في الرسول

 الرسالة للأسعر الجعفي:

ألا أبلغ أبا عمرو رسول بأني عن فتاحكم غني.وفي التنزيل العزيز إِنَّا رَسُوْلُ رَبِّ العَالَمِيْنَ ولم يقل رسل لأن فعولا وفعيلا يستوي فيها المذكر والمؤنث والواحد والجمع مثل عدو وصديق.والرسول:اسم من

أرسلت وكذلك الرسالة»(1).

 كما جاء في "مختار الصحاح":«رَاسَلَهُ مُرَاسَلَةً فهو مُرَاسِلٌ ورَسِيْل.وأرسله في رسالة فهو مرسل (بفتح

السين) ورسول والجمع رسل (بتسكين السين وضمها) والرسول أيضا:الرسالة»(2).

 أما "الزمخشري" فيكتب: «رَاسَلَه ُفي كذا.وبينهما مكاتبات ومراسلات،وتراسلوا،وأرسلته برسالة وبرسول.وأرسلت إليه أن افعل كذا.وأرسل الله في الأمم رسولا»(3).

 ويعرف "قدامة بن جعفر" الترسل كما يلي:«الترسل من تراسلت أترسل ترسلا وأنا مترسل،ولا يقال

ذلك إلا لمن يكون فعله في الرسائل قد تكرر،وراسل يراسل مراسلة فهو مراسل،وذلك إذا كان هو ومن

يراسله قد اشتركا في المراسلة،وأصل الاشتقاق في ذلك أنه كلام يراسل به من بعد أو غاب،فاشتق له اسم الترسل والرسالة من ذلك»(4).

 وهو أيضا عند "عمر عروة":«من تَرَسَّلَ تَرَسُّلاً،وهو كلام يراسل به من بعد أو غاب فاشتق له اسم

الترسل،والرسالة من ذلك،والترسل مبني على مصالح الأمة،وقوام الرعية،لما يشتمل عليه من مكاتبات الملوك،وسراة الناس في مهمات الدين،وصلاح الحال وبيعات الخلفاء وعهودهم ... »(5).

 أما الرسالة، **فتعرّف** على أنها«كل ما يرسل أو هي الكلمة شفوية أو مكتوبة يبلغها الرسول أو يحملها

إلى من ترسل إليه،وهذه الكلمة تختلف طولا وقصرا على حسب موضوعها»(6)،ويعرفها "حسين علي

محمد" بقوله: «هي فن من فنون النثر القولية،عرفها العرب منذ القدم،وهي مثل فنون النثر الأخرى(

القصة،المسرحية،السيرة الذاتية...)،لها خصائصها المميزة التي تجعلها فنا قائما بذاته»(7).ويرى آخر

أن الرسالة«هي ما يكتبه امرؤ إلى آخر معبرا فيه عن شؤون خاصة،أو عامة وينطلق فيها الكاتب عادة

على سجيته بلا تتصنع أو تأنق،وقد يتوخى حينا البلاغة،والغوص على المعاني الدقيقة فيرتفع بها إلى مستوى أدبي رفيع»(8).

  **2)- تطور فن الرسالة عبر العصور:**

حقيقة إن الرسائل فن أدبي قديم ازدهر وانتشر في القرنين الثالث والرابع الهجريين،كما يمكننا القول إنه فن نثري جميل يظهر مقدرة الكاتب وموهبته الكتابية وروعة أساليبه البيانية المنمقة القوية،فالكتابة لم تكن شائعة بين العرب في الجاهلية،ولهذا السبب لم يكن للرسائل دور في حياتهم الأدبية في ذلك العصر،وإنما

ازدهر عندهم الشعر والخطابة والأمثال.

 ولما جاء الإسلام تغير الحال،فالرسول وهو الأمي الذي لا يكتب،كان يشجع المسلمين على تعلم القراءة

والكتابة.وقد اتخذ كتابا يكتبون له القرآن الكريم،ويكتبون له رسائله التي كان يبعث بها إلى رؤساء القبائل

وزعماء المناطق وملوك الدول،فلم يكن الشعر والخطابة قادرين على آداء الدور العملي الذي تؤديه الرسالة حين تنقل ما تصل بسياسة الدولة من مراسيم سياسية وتوجيهات أو تعليمات إدارية،ومن هذا التاريخ نافس الكاتب الشاعر والخطيب (9).وكانت رسائل صدر الإسلام في معظمها «غالبا ما تبدأ بالبسملة ثم يأتي بعدها تعابير من قبيل:من محمد رسول الله أو من خليفة رسول الله ،أو من أمير المؤمنين.

وقد تبدأ الرسالة باسم الرسول مباشرة مثل:هذا كتاب من محمد رسول الله.وإذا كانت الرسالة موجهة إلى

مسلم فإن خير ما تستهل به "سلام الله عليك".أما إذا كانت موجهة لغير المسلم، فإن ما تستهل به هو "السلام على من اتبع الهدى" وتأتي بعد السلام مباشرة التحميدات مثل:"فإني أحمد الله" أو "أحمد إليك الله

الذي لا إله ألا هو"،وقد يرد فيها ذكر التشهد أيضا أو يكتفي بعبارة:أما بعد»(10).

 وعندما آل الحكم إلى بني أمية أراد "معاوية بن أبي سفيان" تطوير شؤون الدولة،فأنشأ ديوان الرسائل

للعناية بمكاتباته،« ولم يكن البريد آنذاك مثل ما نعرفه الآن في نقل الرسائل،وإنما كان مقصورا على نقل

ما يهم الدولة ورجالها،كما كان صاحب البريد بمثابة عين للخليفة يكتب إليه بكل ما يقع عليه بصره،أو

يصل إلى أذنه من أخبار»(11).وكانت «الرسائل التي تصدر عن الخلفاء والأمراء في أول أمرها يسيرة سهلة لا تكلف فيها،إنما كانت ممثلة للطبيعة البدوية العربية.ولم تظهر الرسائل الفنية،التي تأنق أهلها فيها واتخذوها موضوعا للعناية الفنية في هذا العصر،إلا في آخر القرن الأول وآوائل القرن الثاني.وربما كان عصر "هشام بن عبد الملك" هو العصر الذي عني فيه بهذه الرسائل العناية الفنية»(12).

 وعندما قامت الدولة العباسية، أخذ خلفاؤها هم الآخرون يولون كتابة الرسائل عناية فائقة،ولعل من أبرز ما ميز هذا العصر هو «كثرة الدواوين وتنوعها،فدواوين للخراج ودواوين للنفقات ودواوين للجيش ودواوين للحرب ودواوين للرسائل ودواوين للخاتم ودواوين لشرقي الدولة ودواوين لغربيها،ولكل ولاية

ديوان،وفوق هذه الدواوين ما يسمى بديوان الزمام الذي ينظر في ضبط كل ديوان على حدة.

 وبجانب هذه الدواوين العامة في بغداد دواوين في الولايات للخراج والرسائل،ودواوين أخرى لأولياء العهد وللأمراء والوزراء وكبار القواد،ومن لو يتخذ من هؤلاء ديوانا كبيرا كان له كاتب يكتب عنه

وينظر في تدبير أمواله ونفقاته وضياعه،وحتى نساء الخلفاء كن يتخذن الكتاب،وكذلك كان يتخذهم بعض

القضاة والعلماء للكتابة عندهم»(13).

 ونظرا لأن وظيفة الكتابة في الدواوين كانت من الوظائف المهمة في الدولة،فقد تطلع كثير من الكتاب

إلى العمل فيها.وكان الديوان مدرسة يتلقى الكتاب فيها عندما ينظمون إليها تدريبات كثيرة ؛لكي يتقنوا

الكتابة الديوانية إتقانا(14).

 وكان كتاب الرسائل للخلفاء وعمالهم إما عربا أو موالي يجيدون العربية.أما كتاب الخراج ونحوه فكانوا

فكانوا في كل إقليم من أهله يكتبون بلغتهم.واما نبغ من العرب من يحسن عملهم حولت هذه الدواوين إلى

العربية زمن "عبد الملك بن مروان" و"الوليد" وابنه،وجرى خلفاء بني أمية في كتابة الرسائل على ما كان عليه الأمر زمن الخلفاء الراشدين، ثم لما اتسعت رقعة المملكة واستقرت أمور الدولة،وازدادت الأعمال وشغل الخلفاء عن أن يلوا الكتابة بأنفسهم أو بخاصة عشيرتهم عهدوا بها إلى كبار كتابهم.وكان كثير منهم يعرف اللغة الرومية أو الفارسية أو اليونانية أو السريانية،وهي أمم ذات حضارة وعلوم ونظام

ورسوم،ومن بين هؤلاء "سالم" مولى "هشام بن عبد الملك" أحد الواضعين لنظام الرسائل،وأستاذ "عبد

الحميد الكاتب" الذي آلت إليه الكتابة آخر الدولة الأموية (15).

 **3)- أنواعه:**

 **أ- الترسل الديواني:**

 تسمى الرسائل التي تصدر عن ديوان الرسائل بـ"الرسائل الديوانية"،وهي« الصادرة عن ديوان الخليفة

والأمير يوجهها إلى ولاته وعماله وقادة جيوشه،بل إلى أعدائه أحيانا منذرا متوعدا،كما ينبئنا "الشريف

الرضي" في وصف رسائل "أبي إسحاق الصابي":

وصحائف فيها الأراقم كمن مرهوبة الإصدار والإيراد

حمر على نظر العدو كأنما بدم يخط بهن لا بمدد.

وتتنوع هذه الرسائل،فهي تشمل الرسائل التي تصدر مشتملة على تولية العهد،وتولية القضاة والولاة،وما

يتصل بأمور الرعية.كما أنها تشمل أيضا الرسائل التي تكتب عن الخليفة أو الملك أو الوزير إلى من هو

مثله من أجل التهنئة أو البشارة أو المعاتبة أو التعزية وما أشبه ذلك»(16).

 ومن أنواع الرسائل الديوانية أيضا «رسائل الجهاد التي يوجهها الخلفاء إلى قوادهم يكلفونهم فيها بالغزو

ويزينون إليهم الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته،واعتمدت هذه الرسائل على المعاني الدينية،فكان الكاتب

يضمنها الآيات التي تتحدث عن تكاليف الجهاد باعتباره فريضة شرعها الله لحماية دينه وإعلاء شأنه،كما كانت تتحدث عما ينتظر المجاهدين من ثواب ونعيم في الدارين»(17).

 **موضوعاته وخصائصه:**

تطرقت الرسائل الديوانية إلى موضوعات كثيرة ومتنوعة،فقد كانت «تتناول تصريف أعمال الدولة وما يتصل بها من تولية الولاة،وأخذ البيعة للخلفاء وولاة العهود،...وأخبار الولايات وأحوالها في المطر والخصب والجدب،وعهود الخلفاء لأبنائهم ووصاياهم،ووصايا الوزراء والحكام في تدبير السياسة الحكم،

وأيضا أخذت تتناول بعض الأغراض التي كان يتناولها الشعر من تهنئات وتعزيات وشكر»(18).

 كما تضمنت أيضا ما يكتبه كتاب الدواوين «في التهاني بما تحقق من فتوحات وظفر على أعداء المسلمين،وكان استهلال رسائل التهنئة بالفتوحات سنة متبعة بين الكتاب حتى لتكاد تقترب في هذه السمة

من الخطابة الدينية التي تجري على هذه الطريقة من استخدام التحميدات والإكثار منها.وتضمنت الرسائل

الديوانية أوامر الخليفة بتولية من يختارونهم من الولاة أو عزلهم،وكانت هذه الرسائل أشبه بمنشورات يوجهها الكاتب باسم الخليفة إلى عماله في الأصقاع المختلفة،ويتصل بالرسائل الديوانية ما كان يكتبه إلى الولاة بتوجيهات من خلفائهم يذكرونهم فيه بمسؤوليتهم في المحافظة على الأمن ومتابعة شؤون وأحوال الرعية والعمل على استقرار الأمور»(19).

 وقد عمل النقاد والأدباء على ضبط القواعد التي ينبغي للكتاب أن يسيروا عليها في كتابة رسائلهم،فـ«

تفننوا حينئذ طويلا في التحميدات التي تصدر بها الرسائل،وتنسب "للرشيد" أنه أول من أمر أن تبتديء

مكاتباته بعد البسملة بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم،وفي رواية ثانية أن "يحي البرمكي" وزيره

أول من زاد في الرسائل (واسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله)، وأنه أنشأ في ذلك كتابا ذكر فيه

فضل الأنبياء عليهم السلام»(20)،وقد بالغ بعض الكتاب في إطالة التحميد،حتى بلغ به صفحة كاملة أو

عدة صفحات،مثال ذلك ما جاء في مستهل رسالة كتبها "أحمد بن يوسف" (المتوفي سنة 613ھ) بناء على

طلب الخليفة "المأمون" بمناسبة توليه الخلافة،وهذه الرسالة تسمى رسالة الخميس،وكانت تقرأ في خراسان على شيعة بني العباس»(21).

 **أشهر كتاب رسائل الدواوين:**

كان كتاب الرسائل كثيرون،فقد صارت الكتابة صناعة يمارسها الكثيرون،ومن أشهرهم نذكر:

- "عمارة بن حمزة" كاتب "السفاح" و"المنصور" وقد ولاه سنة 156 للهجرة،على كور دجلة والأهواز وفارس،ثم ولاه "المهدي" خراج البصرة،وكان "المهدي" يجله،وكان جوادا غير أن فيه تيها شديدا حتى

ضرب المثل بتيهه،وهو أحد الكتاب البلغاء،واشتهر بتدبيجه لأول رسالة من رسائل الخميس؛وهي رسالة

كانت تكتب في عهد كل خليفة عباسي،وكان موضوعها تأييد الخلافة العباسي.

- "يوسف بن صبيح" وكان كاتب "المنصور"،وكان يكتب في ديوان الكوفة لبني أمية،ثم كتب لـ"عبد الله

ابن علي" عم "المنصور" في مطلع الدولة العباسية،وكان من الكتاب الذين اشتهروا بالبلاغة.

- "يحي البرمكي" الذي برز في عصر "الرشيد"،وقد جمع جمعا رائعا بين بين ثقافة العرب والفرس،

وكان آية في البلاغة والإيجاز.

- ومن الكتاب المفوهين "محمد بن الليث"،وقيل عنه أنه كان بليغا مترسلا كاتبا فقيها متكلما بارعا،وأروع

ما أثر عنه رسالته التي كتبها "للرشيد" إلى "قسطنطين السادس" إمبراطور بيزنطة.

- وأيضا "عمر بن مسعدة"،وقد حضيت رسالته التي كتبها للمأمون بتقدير المأمون والأدباء والنقاد،كما أثنوا على بلاغتها(22).

 وسرعان ما يخلف "المأمون" "الأمين"،وفي عصره تبلغ الكتابة الديوانية الذروة المنشودة،فقد تكاثر الكتاب البارعون وتكاثرت آثارهم،واتضحت فيها نزعة قوية إلى العناية بالجمال الفني والتدقيق في المعاني أشد التدقيق.وأول ما نلقاه من هؤلاء الكتاب:"الفضل بن سهيل" وأخوه "الحسن" وزير المأمون،و"عبد الحميد بن يحي الكاتب" الذي يعد شيخ الكتاب الآوائل،وهو الأستاذ الأول لأهل صناعة كتابة الرسائل،ذلك أنه أول من مهد سبيلها،وميز فصولها،وأطال في بعض الشؤون،وقصرها في بعضها الآخر وأطال التحميدات في صدرها،وجعل لها صورا خاصة ببدئها وختمها،على حسب الأغراض التي تكتب فيها(23).

 وسنختار هذه **الرسالة** لـ"عبد الحميد الكاتب" التي يتحدث فيها إلى الكتاب،والتي عدت من بعض النواحي كدستور لهم أو كمنشور،وفيها يقول:«...أما بعد،حفظكم الله،يا أهل هذه الصنعة،ووفقكم وأرشدكم ،فإن الله -عز وجل- جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين - صلوات الله عليهم أجمعين- سوقا،وصرفهم في صنوف الصناعات التي سبب منها معاشهم،فجعلكم - معشر الكتاب- في أشرفها صناعة،أهل الأدب والمروءة والروية،وذوي الأخطار والهمم وسعة الذوق في الأفضال والصلة،بكم ينتظم الملك ويستقيم للملوك:أمورهم،وبتدبيركم وسياستكم يصلح الله سلطانهم،ويجمع فيهم،وتعمر بلادهم،يحتاج إليكم الملك في عظيم ملكه،والوالي في القدر السني من ولايته،ولا يستغني عنكم منهم أحد ولا يوجد كاف إلا منكم...

فتنافسوا –معشر الكتاب- في صنوف العلم والأدب،وتفقهوا في الدين،وابدءوا بعلم كتاب الله -عز وجل-

والفرائض ثم العربية،فإنها ثقاف ألسنتكم،وأجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم،وارووا الأشعار،واعرفوا غريبها ومعانيها،وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها،فإن ذلك معين لكم على ما تسمون إليه بهممكم...والكاتب

بفضل رأيه،وشرف صناعته،ولطيف حيلته،ومعاملته لمن يحاوره ويناظره،ويفهم عنه ويخاف سطوته،

أولى بالرفق بصاحبه ومداراته وتقويم أوده،من سائس البهيمة التي لا تحير جوابا،ولا تعرف خطأ ولا صوابا،إلا بقدر ما يصيرها إليه سائسها أو صاحبها الراكب لها،فأدقوا - يرحمكم الله- النظر،واعملوا فيه

الروية والفكر،تأمنوا ممن صحبتموه - بإذن الله- النبوة والاستثقال والجفوة،ويصيروا منكم إلى الموافقة وتصيروا منهم إلى المساواة والشفقة،إن شاء الله»(24).

 بدأت الرسالة بالدعاء،ثم يأتي عرض الرسالة،وأخيرا ختمها بلفظ المشيئة وهو مما تختتم به الرسالة،

وقد«عني عبد الحميد في أسلوب الرسالة بانتخاب ألفاظه ودقة معانيه شأنه شأن كل بليغ يحرص على جودة الصياغة وحسن الآداء،ولم يكن يحتفل بالسجع ويلتزمه،ولكنه كان ممن يميلون إلى التوازن بين العبارات والألفاظ،ويستعين بالترادف والتكرار والتقابل.ونلاحظ أيضا أن الكاتب لجأ إلى التصوير»(25).

 ومن خصائص أسلوبه العامة كما يرى "د.طه حسين" : «أنه كان يقسم كلامه إلى فصول،فكل رسالة

من رسائله تنقسم إلى أجزاء،يؤدي في كل جزء فكرة ومعنى.وهو لا ينتقل من فكرة إلى فكرة إلا إذا استطاع أن يستريح ويتنفس.فأنتم إذا قرأتم فقرة يمكنكم أن تقفوا وتستريحوا عند آخرها،وأن تطووا الكتاب

يوما أو أكثر،ثم تعودوا إلى القراءة،دون أن تشعروا بانقطاع في المعنى.وهذا النوع من تقسيم الكلام نوع يوناني أيضا،من خصائص النثر اليوناني القديم»(26).

 **ب- الترسل الإخواني:**

هي نوع من الكتابات التي تصور عواطف الأفراد ومشاعرهم،من رغبة ورهبة ومديح وهجاء وعتاب واعتذار وتهنئة وشكر.ومن خصائصها أنها تعبر عن المشاعر والأحاسيس والتحية والسلام،وتكون ألفاظها مختارة بعناية وعباراتها مشحونة بالمعاني(27).

 وقد عدت أنواع الرسائل الإخوانية حتى وصلت إلى سبعة عشر نوعا ،وهي:«التهاني،التعازي،التهادي،

الشفاعات،التشوق،الاستزارة،اختطاب المودة،خطبة النساء،الاستعطاف،الاعتذار،الشكوى،استماحة

الحوائج،الشكر والعتاب،السؤال عن حال المريض،الأخبار،المداعبة »(28).

 والرسائل الإخوانية كان يلجأ إليها الكتاب،فقد«كانوا يتراسلون فيما بينهم متخذين من الرسائل وسيلة للتعبر عن مشاعرهم وانفعالاتهم وما تتعرض له أحوالهم النفسية من نوازع متضاربة،فصوروا فيها ما

يعتورهم من شوق وفرح وما يتعرضون له من أحزان وأتراح،وما يداخلهم من رضا وغضب،واتسعت

موضوعات الرسائل الإخوانية فأصبحت تعكس عواطف الكتاب في الصداقة والشوق والبشارة والشوق

والفراق، والاستعطاف والاعتذار وغير ذلك،وتنافس الكتاب في إظهار براعتهم في هذا اللون من الرسائل

فوفروا لها عناصر المتعة الفنية من تصوير وصياغة وموسيقى؛ فجمعت بين المتعة الوجدانية،والمتعة

الفنية ،فأحدثت بذلك تأثيرا قويا في نفوس الناس مما جعل بعض الشعراء ينجذبون إليها ويتخذونها وسيلة لتصوير عواطفهم بعد أن أصبح كثير من الناس يفضلون المنثور على المنظوم»(29).

 **موضوعاته :**

تدور أغلب موضوعات الترسل الإخواني حول الجانب الإنساني،وما يتصل بالصداقة والعلاقات الاجتماعية،«كالرغبة في التلاقي للمسامرة أو المنادمة أوالإئتناس،وعبرت كذلك عن بعض العادات

الاجتماعية التي شاعت بين الكتاب آنذاك كتبادل الهدايا من كتب وزهور وخيول وسيوف وغيرها.واتخذ الكتاب الرسالة الإخوانية أداة لتوجيه الشكر إلى إخوانهم لمعروف أسدوه إليهم أو خير اختصوهم به أو معروف أحاطوهم به»(30).

ولم تقتصر على ما سلف ذكره،بل «تناولت موضوع الاعتذار باعتباره يمثل صورة من صور العلاقة

المتبادلة بين الكتاب،فكان الكاتب يعتذر عن تلبية دعوة أو المشاركة في إحدى المناسبات ذاكرا الأسباب التي حالت دون تلبية دعوته»(31).وعلى العموم فقد تناولت المواضيع التالية:

 التوصية أو رسائل التواصي؛ يرسلها شخص لشخص آخر عنده جاه،يشفع عنده لشخص ثالث في أمر من الأمور التي تهمه،أو في قضاء حاجة من حوائجه،وكان هذا النوع من الرسائل مألوفا في زمن العباسيين،فقد كان الناس يضطرون إلى تسخير الجاه في سبيل قضاء الحوائج بوصفه شكلا من أشكال الكرم.

 إضافة إلى رسائل التعزية والمواساة،التي تدور حول الحث على الصبر والرضا بقضاء الله،والدعوة إلى عدم إظهار الجزع من المصائب،والتذكير بما يلقاه الصابرون من الثواب عند فقدان الأحبة...وكثيرا ما تتضمن دعاء للميت بالرحمة ولأهله بالصبر والأجر وطول البقاء.

 وهناك نوع آخر وهو رسائل الهجاء ولكنها لم تلق الرواج،وقد اشتهر بعض الكتاب بسلاطة اللسان في كتاباتهم،ومن هؤلاء "بشر بن أبي كبار البلوي" وكان كثير التعرض للوزراء والولاة وغيرهم من أعيان أهل العراق ومن رسائله في الهجاء قوله:(أما بعد فإني رأيتك في أمر دينك متصنعا مخذولا وفي أمر دنياك فاجرا مثبورا،وفيك خصال لا تجتمع في مسلم إلا بسوء سريرة كبيرة،أو إضمار عظيمة...وإن في إيمانك لضعفا،وإن في نفسك لوهنا،وإن في صدرك لكبرا،وإن في قلبك لقساوة،وإن في معيشتك لإسراف).

 دون أن ننسى رسائل السؤال عن المريض،فقد اعتاد الكتاب في السؤال عن المرضى أن يتمنوا لهم البرء والسلامة والأجر والثواب(32).

 وليس هناك معايير صارمة أو قواعد ثابتة في هاته النوعية من الرسائل،«فقد حاول النقاد أن يضعوا معالم يهتدي بها الكتاب في كل ضرب من ضروب الرسائل الاخوانية،ولكنهم في كثير من الأحيان يعترفون بالعجز عن وضع هذه المعالم بدقة»(33)،ولعل هذا ما يميز الترسل الاخواني، ويجعله«أدخل في الأدب،وأقبل للتخييل والصور البيانية،والصنعة البديعية،تحتمل الاقتباس من المنثور والمنظوم،وتنافس الشعر في جل أغراضه»(34).

 **أشهر كتاب رسائل الاخوانيات:**

من بين أشهر كتاب الاخوانيات الأديب الكاتب "شهاب الدين محمود الحلبي"،وكذلك الأديب البارع الشاعر "برهان الدين القيراطي" ،والشاعر الفحل "جمال الدين بن نباتة المصري"، والأديب المؤرخ "صلاح الدين الصفدي"،وللصفدي كتاب مخطوط اسمه "ألحان السواجع" سجل فيه مراسلاته الاخوانية

وردود إخوانه عليها(35).

 وسنختار **نموذجا** عن رسائل الشوق والمودة لـ"سعيد بن حميد" وفيها يقول:(إني أهديت مودتي رغبة إليك ورضيت بالقبول منك مثوبة،فصرت بقبولها قاضيا لحق ومالكا لرق).ويقول في رسالة أخرى:(إني صادفت منك جوهر نفسي فأنا غير محمود على الانقياد لك بغير زمام،لأن النفس يقود بعضها بعضا).

 ومن رسائل الدعوة هذه الرسالة التي كتبها "الحسين بن الحسن بن سهل" إلى صديق له يدعوه فيها لحضور مأدبة، يقول فيها:(نحن في مأدبة لنا،تشف على روضة،تضاحك الشمس حسنا،قد باتت السماء تكللها،فهي مشرقة بمائها،حالية بنوارها،فبادر إلينا،لنكون على سواء من استمتاع بعضنا ببعض) (36).

 **جـ- الرسائل الأدبية:**

 هي الرسائل التي لا توجه لشخص بذاته،وإنما يكتبها الكاتب ليقرأها الناس جميعا وهذا النوع من الرسائل أشبه ما يكون بالمقالات في العصر الحديث،وفيها يتناول الكاتب موضوعا خاصا أو عاما،تناولا أدبيا مبنيا على إثارة عواطف القاريء ومشاعره،ومن هذا الطراز أكثر رسائل "الجاحظ" -الذي قيل عنه أنه إمام كتاب الرسائل في جميع العصور- من مثل رسالة التربع والتدوير،ورسالة الحاسد والمحسود،ورسالة المعاش والمعاد(37).

 مما سبق نستنتج أن للرسالة شروطا تقوم عليها ،وهي البساطة والبيان والإيجاز وجودة التعبير،وقد كانت الرسائل الديوانية المثل الأعلى للإنشاء في العصر العباسي،وقد تنوعت أغراضها،وكذلك الرسائل الاخوانية التي تصور عواطف الناس ومشاعرهم،ونظرا لما في صناعة النثر من المرونة والتحرر من القيود والأوزان فاقت الرسالة الشعر،وأصبحت أداة للتعبير عن شتى الموضوعات•

**الهوامش:**

(1)- ابن منظور:لسان العرب،مادة (رسل)،م1،ص105.

(2)-الرازي:مختار الصحاح،مكتبة مشكاة الإسلامية،(د.ت)،(د.ط)،ص154.

(3)-الزمخشري:أساس البلاغة،تح:محمد باسل عيون السود،دار الكتب العلمية،بيروت،ط1،1998،ص353.

(4)-قدامة بن جعفر:نقد النثر،ص98.

(5)-عمر عروة:النثر الفني القديم أبرز فنونه وأعلامه،دار القصبة للنشر،،(د.ت)،(د.ط)،ص32.

(6)-عبد العزيز عتيق:في النقد الأدبي،دار النهضة العربية للطباعة والنشر،بيروت،ط2،1972،ص221.

(7)-حسين علي محمد:التحرير الأدبي دراسات نظرية ونماذج تطبيقية،مكتبة العبيكان،الرياض،ط6،2005،ص151.

(8)-جبور عبد النور:المعجم الأدبي،دار العلم للملايين،بيروت،ط1،1972،ص122.

(9)- محمد يونس عبد العال:في النثر العربي،الشركة المصرية العالمية للنشر،القاهرة،ص209.

(10)- عمر عروة:النثر الفني القديم أبرز فنونه وأعلامه،ص33.

(11)- القاضي التنوخي:الفرج بعد الشدة،الموسوعة الشعرية المجمع الثقافي،الإمارات العربية المتحدة،2003،ص301.

(12)- طه حسين:من حديث الشعر والنثر،دار المعارف،القاهرة،ط12،ص42.

(13)- شوقي ضيف:تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول،ص465.

(14)- محمود عبد الرحيم صالح:فنون النثر في العصر العباسي،ص85.

(15)- أحمد الهاشمي:جواهر الأدب،دار الفكر،بيروت،لبنان،ص283.

(16)- عبد العزيز عتيق:في النقد الأدبي،ص223.

(17)- فوزي سعيد عيسى:الترسل في القرن الثالث هجري،دار المعرفة،1991،ص18.

(18)- شوقي ضيف:تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الأول،ص468.

(19)- فوزي سعيد:الترسل في القرن الثالث الهجري،ص.ص26-27.

(20)- شوقي ضيف:تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الأول،ص468.

(21)- المرجع نفسه،ص469.

(22)- ينظر:المرجع نفسه،الصفحات 472،471،470.

(23)- ينظر:أحمد الهاشمي:جواهر الأدب،ص.ص284-285.

(24)- محمد يونس عبد العال:في النثر العربي،ص.ص209-210.

(25)- المرجع نفسه،ص210.

(26)- طه حسين:من حديث الشعر والنثر،ص52.

(27)- http꞉ //ejabat.google.com

(28)-القلقشندي :صبح الأعشى في صناعة الإنشاء،دار الكتب المصرية،القاهرة،ص.ص5-6.

(29)- فوزي سعيد:الترسل في القرن الثالث الهجري،ص35.

(30)- المرجع نفسه،ص.ص35-36.

(31)- المرجع نفسه،ص38.

(32)- ينظر: محمود عبد الرحيم صالح:فنون النثر في العصر العباسي،ص104-118.

(33)- أحمد بدوي:أسس النقد الأدبي عند العرب،مكتبة نهضة مصر،القاهرة،1964،ص32.

(34)- محمد مسعود جبران:في فنون النثر الأدبي،دار المدار الإسلامي،ط1،2004،ص.ص149-150.

(35)- محمود رزق سليم:الأدب العربي وتاريخه في عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث،مطابع دار الكتاب العربي،مصر،1957،ص32.

(36)- ينظر:سامي يوسف أبو زيد:الأدب العباسي النثر،دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة،عمان،الأردن،ط1،ص.ص

193-194.

(37)- عبد العزيز عتيق:في النقد الأدبي،ص.ص223-224.

**الخاتمة:**

 يتبين لنا من خلال ما تقدم أن نشأة النثر العربي القد يم مرت بعدة مراحل وأطوار،وكانت نشأته غامضة

ومختلفا فيها في العصر الجاهلي،وقد كان قليل الحظ من ناحية الحفظ والتداول إذا ما قورن بفن الشعر،وفي العصر الإسلامي كانت مظاهر التطور في جانب النثر أبرز للعيان وأوضح منها في الشعر،كما تعددت أغراضه بفضل الإسلام ولانت معانيه (القرآن الكريم،الحديث النبوي الشريف)،وازدهرت الكتابة في العصر الأموي؛نتيجة لاستعمال الخط والمكاتبات،أما في العصر العباسي

فقد خطا خطوة عملاقة،إذ يمكن اعتباره بالفعل العصر الذهبي للأدب العربي.

 كما كثرت فنون النثر وتعددت،وكانت الخطابة من أبرز وأقوى وسائل الدفاع عند العربي،إذ مارسها منذ العصر الجاهلي،ولولاها لما وصل الإسلام إلينا،فهي أحسن وسيلة للإقناع والاستمالة،كما ازدهرت في العصر الإسلامي ولاسيما الخطابة الدينية،وذلك لتأثرها بأسلوب القرآن الكريم المعجز ومعانيه،غير أن مكانتها تراجعت في العصر العباسي،ذلك أن النثر المكتوب أصبح ينافس النثر الشفاهي ويحتل مكانته.

 عرف العرب أيضا فن القصة منذ عهود مبكرة وأبدعوا فيها،كما كان لهم مجموعة من القصاص تصدت لهذه المهمة.

 وبرز في العصر الجاهلي ما عرف بـ(سجع الكهان) وهو لون من ألوان النثر،كانت تمارسه طائفة من العرب تحترف الكهانة وتدعي معرفة علم الغيب،وكان السجع وسيلتهم للتأثير في نفوس المستمعين وحملهم على تصديق أقوالهم،غير أن معظم ما وصل منه منحول في أغلبه ألف لعدة أغراض،وقد وقف الإسلام موقفا عدائيا منه.

 عرف العرب أيضا الأمثال منذ عهد مبكر واهتموا بها،فأكثروا من استخدامها في أحاديثهم وحرصوا على جمعها وحفظها والكتابة حولها،واستخدموا أيضا الحكم وهي أقوال من جوامع الكلم تعتمد على الوجازة في التعبير،ونظرا للتقارب بين الفنين،فقد اتسما بالسهولة في الآداء وحسن الصياغة وعمق الفكرة ونبل المقصد.

 كما شاعت ظاهرة فنية في النثر العربي وهي (التوقيعات)،وهي عبارة عن تعقيب موجز يكتب ردا على الرسائل الواردة إلى الخلفاء أو المسؤولين،ويمتاز بقوة البيان وحسن الصياغة والإيجاز ويشترط أن يكون ملائما للحالة التي يكتب فيها،وترجع جذوره إلى أصل عربي باستثناء آراء بعض الباحثين الذين يرون أن له جذورا فارسية.

 عرف العرب أيضا السرد،تجلى ذلك في كتاب "ألف ليلة وليلة"،بحيث يتكون البناء النصي له من قصة إطار تتضمن مجموعة قصص أخرى،وتدور كل الأحداث حول ملك اسمه "شهريار" وزوجته "شهرزاد" التي اتخذت دور الناظم،وقد لقي الكتاب شهرة كبيرة ورواجا،وأصبح رمزا أصيلا لمدينة بغداد.

 برز أيضا إلى الوجود فن عربي أصيل عرف بـ (فن المقامة)،وقد ازدهرت في العصر العباسي،وأول من مارسها "بديع الزمان الهمذاني"،والمقامات المنسوبة إليه قمة في لبلاغة والصنعة وعلو الرتبة،وهي أشبه ما تكون بقصص قصيرة تنتهي دائما بطرافة أو عظة،وقد سار على نهج "البديع" "الحريري"،الذي

حاكاه في هذا الفن وعارضه فكتب على منواله هو الآخر مجموعة مقامات.

 كتب العرب أيضا في فن (الرسالة) ،وهو فن نثري يقوم على البساطة والبيان والإيجاز والملائمة،وتنقسم إلى قسين؛رسائل ديوانية ورسائل إخوانية،كما تعددت أغراضها تبعا لمشيئة الكاتب وأسلوبه.

 إذن،هذه هي أشهر الفنون النثرية العربية القديمة التي جادت بها قريحة العربي،وكانت ممثلة لعصره ومجتمعه خير تمثيل،كما بينت مدى أصالته وكيفية استفادته من مختلف الثقافات المحلية والأجنبية.

**فهرس الموضوعات:**

|  |  |
| --- | --- |
| - تقديم...................................................................................................- النثر العربي القديم...................................................................................- فن الخطابة في العصر الجاهلي...................................................................- الخطابة الإسلامية وتطورها......................................................................- فن القصة في الأدب العربي القديم................................................................- سجع الكهان..........................................................................................- الأمثال في الأدب الجاهلي.........................................................................- فن الحكمة............................................................................................- فن التوقيعات........................................................................................- حكايات ألف ليلة وليلة.............................................................................- فن المقامة............................................................................................- فن الترسل............................................................................................- خاتمة..................................................................................................- فهرس الموضوعات................................................................................ | 1261219293240445162677779 |